وائل لاشين
جريمة في متحف جاير أندرسون
رواية
ساحر الكتب

الكتاب: جريمة في متحف جاير أندرسون

المؤلف: وائل لاشين

تصميم الغلاف: يوسف السيد

التدقيق اللغوي: محمد عبد العال

التنسيق الداخلي: هند محمود كمال

رقم الإيداع: 2025/35527

الترقيم الدولي: 978-977-778-514-3

---

30 عمارات العبور – طريق صلاح سالم – القاهرة

ت: 01096539633

إيميل: info@noonpublishing.com

جميع حقوق الطبع والنشر والتوزيع محفوظة للناشر

إلى أول من منحني قلمًا

وصدّق حروفي قبل أن أرسمَهَا

إلى الحياة لعلّها ترفق بي

يطرق الحب الباب، فتدخل الحيـــاة!..

"وَيَسأَلونَكَ عَنِ الرّوحِ قُلِ الرّوحُ مِنْ أَمرِ رَبّي وَمَا أوتيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إلّا قَلِيلًا".

سورة الإسراء، الآية 85

***

"مَنْ يَزْرَعْ لِجَسَدِهِ فَمِنَ الْجَسَدِ يَحْصُدُ فَسَادًا، وَمَنْ يَزْرَعْ لِلرُّوحِ فَمِنَ الرُّوحِ يَحْصُدُ حَيَاةً أَبَدِيَّةً".

رسالة بولس الرسول

***

"وما الجسد إلا رداء للروح الخالدة، فلا تطلب الرداء وإنما ابحث عن المرتدي".

جلال الدين الرومي

الساعة السابعة صباحًا يعلو رنين المنبه الخاص بحازم، معلنًا انتهاء الهدنة اليومية بينه وبين عمله..

نعم، هدنة، فهو لا يتوقف عن العمل طوال يومه؛ يعشقه ويعتبره أهم أولوياته التي خلقه الله من أجلها.

يمارس طقوسه اليومية من الاستحمام وحلق لحيته وتناول القهوة، ثم ارتداء ملابسه متعطرًا بعطره المفضل، لا ينسى ساعته الرولكس التي يرتديها في معصمه الأيمن، وهو فِعلٌ اعتاده منذ صغره ولا يعرف سببًا لذلك، يغادر منزله بمدينة نصر ليستقل سيارته الـBMW موديل العام، متوجهًا إلى الشركة التي يعمل بها.

حازم عبد الرحمن يوسف، مهندس يعمل بشركة بترول (ايجيترول) بمنطقة المعادي، يودع عامه الرابع والثلاثون بعد أيام، متوسط الطول، قمحي البشرة، يملك عينين عسليتين، يقطعهما أنفٌ دقيق، يتعامد على ثغرٍ حاد، هو ابنٌ وحيد لأب وأم قضيا عمرهما بالخليج قبل أن يتوفيا في حادث سيارة وهو لم يزل في عامه الثامن والعشرون. يصل إلى مقر عمله في تمام التاسعة ليجلس على مكتبه الذي لا يفارقه حتى مغادرته للشركة.

يطرق عم مصطفى الباب، ثم يدخل حاملًا قهوته المفضلة:

- اتفضل يا باشمهندس حازم، أحلى قهوة لأحلى مهندس في الدنيا.

يترك حازم ما بيديه لينظر له، وعلى وجهه ابتسامة ود.

- ربنا يخليك يا عم مصطفى، تسلم ايديك، أخبار ولادك إيه؟

- بخير يا باشمهندس، بيبوسوا ايديك، بعد إذنك.

يستكمل حازم عمله ليخرج مصطفى من المكتب ويقابل سهام في الخارج، تسأله عن حازم، فيجيبها بأنه بمكتبه، تشكره وما أن يبتعد عنها، تعدّل من تصفيفة شعرها وتصلح من ملابسها، وترسم ابتسامة قبل أن تطرق الباب برقة ثم تفتحه لتدخل وتسأل عن حاله:

- تمام الحمد لله، بس إيه الشياكة دي؟

بخجل:

- ميرسي، انت بس اللي عينيك حلوة.

- أخبار الشغل معاكي إيه؟

- الحمد لله، أنا بصراحة مبسوطة في الشركة هنا، ومبسوطة أكتر عشان..

قاطعها رنين هاتفه، فلعنت حظّها العاثر، وظلّت واقفة تحاول استراق السمع، عرفت من ابتسامته التلقائية ونبرة صوته الخفيضة أنّها هي، بعد وصلة من التدليل يُنهي المكالمة ليعود للحديث معها مرة أخرى، يسألها عمّا كانت ترغب في قوله، فترد باقتضاب:

- ولا حاجة، أسيبك تكمل شغلك.

وانصرفت، هو يعلم سر تغيرها المفاجئ، عيناها تشي بالحب، ولكنه أغلق قلبه على أخرى وألقى المفتاح في بئرٍ سحيق، ما عاد يرى سواها ولا يسمع غيرها منذ أن أبصرها أول مرة.

فريدة يوسف مهران، مُصممة تعمل بإحدى شركات الجرافيكس،

تبلغ من العمر التاسعة والعشرين، على قدر كبير من الجمال والرقة، كان أول لقاء بينهما منذ ما يقرب من عام، حينما كُلفت من قبل شركتها بتصميم إحدى المواد الدعائية لشركة (ايجيترول) التي يعمل بها، تطورت علاقتهما سريعًا من تبادل الآراء حول شكل ومضمون المادة الإعلانية، إلى تبادل الإعجاب، انتهاءً بمصارحة حازم بانجذابه إليها، ثم الخطبة التي اقتصرت على بعض الأصدقاء والمعارف.

***

دخل حازم مطعم "Jasmine La"، وهو المكان الذي شهد أول لقاء خارج نطاق العمل بينهما، كان المكان مُزدحمًا برواده، وبالرغم من ذلك يسوده الهدوء، لا تُسمع سوى صوت اصطكاك الشوك والملاعق بالأطباق، المزج بين الديكور الراقي مع الإضاءة الخافتة الموزعة بدقة، وتلك الموسيقى التائهة بين أرجاء المكان تبعث السلام في النفوس.

ظل حازم يتلفت حوله بحثًا عنها، حتى وجدها تجلس ساهمة وهي تستند بذقنها على كفيها المعقودين في ملل، يدنو منها في ترقب ويلقي التحية، فترد بابتسامة متكلفة في محاولة لإخفاء غضبها المفضوح:

- الحمد لله.

- معلش اتأخرت شوية أصل كان...

قاطعته:

- معلش حصل خير.

هو يثق برجاحة عقلها وتقديرها لظروف عمله، لكنه يعرف طبع النساء الذي لا يخضع للمنطق، يجلس وهو يهمس ويخبرها كم كان يشتاق إليها، فتلين بعض الشيء، يسألها عن الجديد، تخبره بسعادتها بتعاقد وزارة السياحة مع شركتها لمشروع دعائي جديد لتنشيط السياحة، تسأله عن رأيه، فيحتضن يدها وهو يخبرها كم يثق بها.

تطرق في خجل وكأن لمسته أعادتها للحياة وأنستها غضبها، ثم تستطرد في حماس وهي تصف له كم المشقة المبذول في التنقل بين المعالم السياحية لتصوير ما يصلح لهذا المشروع، ومن باب التخفيف عنها طالبها بالتعامل مع الأمر باستمتاع، وإنها محظوظة بدخول تلك الأماكن التي يقطع لها السيّاح آلاف الأميال لرؤيتها. تلمع فكرة ما في عينيها وهي تقترح بنبرة أقرب إلى الرجاء:

- طب ما تيجي معايا!

***

أغَرّكِ مِنّي أن حُبّكِ قاتِلي

وأنّكِ مَهمَا تأمُري القَلْبَ يَفْعَلُ

امرؤ القيس

***

في صباح اليوم التالي، يراقب حازم فريدة من خلال زجاج سيارته، وهي تخطو بسعادة بينما تتدلى من كتفها كاميرا "نيكون"،

متأنقة كعادتها دومًا بابتسامة تلخص حسن الكون كله، وبرشاقة ريشةِ رسامٍ تتلألأ زيتًا، بعينين سوداوين ناعستين، وأنفٍ رقيق يعلو ثغرًا عذبًا، كما قال المتنبي:

إذا شئتَ أنْ تَلْقَى المحاسِنَ كُلَّهَا

ففي وجهِ مَن تهْوَى جميعُ المحاسِنِ

بينما "بيكي" - قطتها المدللة - تتبعها وهي تموء كعادتها كلما همت بالخروج من المنزل، لتودعها كطفلة تطمئن على أمها وهي تستقل حافلة المدرسة.

تجلس بجانبه بالسيارة، يفوح منها عطرها الآسر المميز، تضم يمناه بين كفيها في حب وامتنان، ونظرة تُلخِّص سعادة الأطفال كيف تكون، تشكره بامتنان، فيكتفي بالابتسام. تبدأ الجولة بزيارة لقلعة صلاح الدين، حيث انتقلا بين أرجائها لالتقاط الصور وجمع أكبر قدر من المعلومات التي قد تفيد في تحديد ملامح تصميمها الدعائي.

كانت فريدة قد طالعت تاريخ وأساطير تلك الأماكن على شبكة الإنترنت، رغم كرهها الشديد لمادة التاريخ خلال سنوات دراستها، إلا أن طبيعة عملها أحيت بداخلها الشغف تجاه الأمر.

انتقلا بعد ذلك إلى مسجد أحمد بن طولون لاستكمال الجولة وتفقد آثار ومعالم المسجد، التقطت الكثير من الصور لمئذنة المسجد، أقدم مئذنة بُنِيَت في مصر، وكذلك المنبر الخشبي والسبيل وكسوة الفسيفساء، بينما تجلّى الانبهار على ملامح وقسمات حازم، وأخبرها أنها المرة الأولى التي يزور فيها المكان. استغرقا في

التجول والتقاط الصور حتى أنهكهما التعب، تعلن فريدة استسلامها للتعب، يغادرا المسجد ليستقلا السيارة، وقبل أن يدير المحرك تخبره بشعورها بالعطش، يتلفت حوله قبل أن يتركها متوجهًا إلى أحد الأكشاك، ثم يعود حاملًا زجاجة مياه معدنية وبعض الحلوى المفضلة لها، ويفتح باب السيارة ليجلس أمام المقود، وهو يناولها المياه ليجد مقعدها خاليًا بلا أثر لها. ارتسمت عليه ملامح الدهشة، يلتفت حوله بحثًا عنها ليبصرها تقف متصلبة أمام مدخل حجري لبيت أثري قديم، يغادر سيارته مسرعًا ليطمئن عليها، فثجيئهُ وعيناها لا تفارقان مدخل البيت:

- إنت سمعت عن المتحف ده قبل كده؟!

ينظر حازم إلى مدخل المتحف الأثري ويقرأ بصوت خافت:

- بيت الكريتلية (متحف جاير آندرسون)

يهز رأسه نافيًا، تنسى إرهاقها وهي تسأله زيارة المكان بنبرة هي أقرب إلى الرجاء. يفكر لثوانٍ قبل أن يستسلم مجددًا ويوافق. وليته ما فعل..

***

تصاحبهما المرشدة الخاصة بالمتحف داخل أروقته، ومعهم مجموعة أخرى من الزائرين لا يتعدون العشرة أفراد، تشرح وتوضح تاريخ كل أثر بالمتحف في فخر وانبهار، كأنه وَرِثته عن جدها الأكبر، تسترق النظرات بين وجوه الزائرين لتستشف انطباعاتهم عن المكان، تقف في منتصف حديقة البيت الأثري وتشير إلى جدرانه، وتقول:

- هذا المتحف يا حضرات يتكون من بيتين، البيت الأول بناه المعلم عبد القادر الحداد سنة 1540 ميلادية، وهو معروف باسم بيت آمنة بنت سالم، وسمي بهذا الاسم لأنها كانت آخر من سكنت فيه، وكما ترون تم بناؤه على الطراز التركي، وفيه مجموعة نادرة من الآثار الإسلامية التي جُمعت من جميع أنحاء العالم الإسلامي.

ويستمر الزوار في التجول داخل أروقة المتحف، تتقدمهم المرشدة دون أن تتوقف لحظة عن الشرح:

- أما عن البيت الثاني الذي بناه الحاج محمد بن سالم بن جلمام الجزار سنة 1631 ميلادية، ويربط بين البيتين ممر عبارة عن قنطرة لتسهيل عملية التنقل بينهما.

قاطعته فريدة التي تناست التعب تمامًا:

- طب إيه حكاية بيت الكريتلية ده؟

- سمي بيت الكريتلية نسبة إلى آخر سيدة سكنت فيه، كانت من جزيرة كريت، حتى جاء شخص اسمه جاير أندرسون، كان رائد طبيب في الجيش الإنجليزي آنذاك، شخص مُغرم بالتاريخ الإسلامي ويعشق الآثار الإسلامية، جاب العالم كله حتى استقر في مصر وطلب من لجنة الآثار العربية المسئولة عن المتحف أن يعيش به ويملأه بالتحف والآثار التي أفنى حياته في جمعها، وتعهد بإعادة ترميمه مرة أخرى، وهو العرض الذي كان بمثابة صفقة لا يمكن رفضها، خاصة أن البيت ساءت حالته جدًا في تلك الحقبة، لكن اللجنة أضافت شرطًا، إنه في حالة وفاته تؤول ملكية المتحف بما فيه للدولة المصرية.

استرقت نظرة إلى الوجوه الشاخصة في رهبة، قبل أن تستطرد:

- وبالفعل، بعد موافقة الجهة المسئولة على العرض، عاش جاير آندرسون في البيت وحوّله إلى متحف، وملأه بحصيلة كنوزه وتحفه الفريدة، آثار من مصر والشام وآسيا الصغرى وإيران والشرق الأقصى والصين وأوروبا.

سكتت مرة أخرى لالتقاط الأنفاس قبل أن تُكمِل:

- جاير آندرسون ولد عام 1881 وعاش في المتحف من 1935 وحتى 1943، حتى قرر أن يعود لإنجلترا بلده، حدث ذلك فجأة دون مقدمات أو سبب معروف حتى الآن، بالرغم من تمسك الملك فاروق به، لدرجة أنّه عرض عليه البقاء في مصر فترة أكبر نظير بعض المميزات الإضافية، لكن الرجل أصر على السفر، وأمام ذلك منحه الملك فاروق لقب الباشوية، ومات بعد رحيله بسنتين.

ثم اقتربت من إحدى الغرف المغلقة، مدّت يدها إلى مقبض الباب، أدارته في حركة استعراضية لتكشف عن محتوياتها التي اتضح أنها المكتب الخاص بالميجور جاير آندرسون نفسه، بعد ذلك استرسلت في توضيح معالمها، الغرفة مزدانة بعدد من الصور المأخوذة من مجموعة عائلة جاير آندرسون، ومن بينها صور لشقيقه التوأم توماس وزوجته إفيلين مورجان ووالدته ماري وابنه جون، ومن بين الصور المعروضة نسخة من فرمان الملك فاروق بالإنعام على آندرسون بلقب "باشا"، وبعض الأختام الشخصية له، وبعض اللوحات الفنية لشقيقه التوأم.

- إيه الماسكات دي؟!

صاحت بها فريدة في تساؤل، وهي تشير إلى مجموعة صغيرة من الأقنعة تبدو حية لعائلة وأصدقاء جاير آندرسون.

عاجلتها المرشدة مجيبة بطريقة العالم ببواطن الأمور:

- الميجور جاير آندرسون كان مغرمًا بالنحت والتصوير، وقرر أن ينحت صورته هو وعائلته بالكامل، لكي يضيفهم إلى مجموعة تحفة، ولو ركزنا بين الصور الفوتوغرافية والماسكات المنحوتة سندرك مدى موهبة هذا الرجل.

ثم لاحظت تعلق بصر بعض الزائرين بمجموعة من المفاتيح:

- هذه مفاتيح لغرف المتحف، وهناك مفاتيح أخرى لا نعلم لأي غرف تنتمي.

بالفعل، المفاتيح تبدو عتيقة جدًا ولا تنتمي إلى عالمنا الحاضر، ويظهر ذلك في حجمها الكبير والنقوش المحفورة عليها.

غادرت الغرفة، ليتبعها الجمع كالمسحورين خلفها، حتى وصلت إلى غرفة أخرى مُعلّقٌ على بابها تمثالٌ لطفلٍ من النحاس، بجناحين مفرودين خلف ظهره، ويحمل على يديه المبتهلتين إلى أعلى صحنًا نحاسيًا بكل يدٍ على حِدَة، كالذي نشاهده في فرق العزف بالأوبرا، والتمثال مُثبّتٌ بمفصلة تربط ظهره بالباب لتتيح تحريكه، فيصبح أداةً للطرق عن طريق اصطدام أرجل التمثال بالباب، مُنحوتٌ أعلى رأسه جملة: (يطرق الحب الباب، فتدخل الحياة).

- هذه غرفة إحدى الملكات التي كانت تعيش هنا، وكان اسمها

الملكة "آن"، وكانوا يستخدمون هذا التمثال كأداة للطرق والاستئذان قبل الدخول عليها.

تستمر في التنقل من غرفةٍ إلى غرفة، موضحةً معالم كل منها على حِدَة، وسط انبهار الزائرين الذين لم يتوقفوا لحظة عن التقاط الصور، حتى وصلوا في نهاية المطاف عند باب الخروج، حيث مُلحَقٌ بالمتحف سبيلٌ أُنشئ لسقاية الناس قديمًا.

- نصل هنا إلى نهاية جولتنا في المتحف، حيث المكان الذي خُصص لسقاية الناس وعابري السبيل، تخرج مياهه من بئرٍ عميق، ظل يُستَخدَم حتى غادر جاير آندرسون البيت سنة 1943.

شكرتهم متمنيةً لهم قضاء وقتٍ سعيد، ثم انصرفت تاركةً إياهم حيث يقفون أمام البئر لالتقاط الصور لحظاتٌ وانصرف الجميع ولم يتبق سوى حازم وفريدة التي استمرت في التصوير، ثم نظرت له في دلال:

- طب ينفع نصوِّر كل الصور دي ومايبقاش لينا صورة فيهم مع بعض؟!

ضحك حازم وهو يلتقط منها الكاميرا ليصورها:

- لأ طبعًا يا ست فريدة، ماينفعش.. تحبي تتصوري فين؟

عضّت سبابتها في حيرة، وهي تحرك عينيها يمنةً ويسرة، ثم أسرعت نحو البئر ووقفت أمامه عاقدةً ذراعيها، تنظر إلى الكاميرا مبتسمةً في دلال:

- هنـــا.

التقط حازم الكثير من الصور وهي تتحرك وتُبدّل من أوضاعها، حتى أشارت إليه:

- تعالى نتصور مع بعض.

تلفت حوله بحثًا عن أحدٍ ليقوم بتصويرهما، لكنه لم يجد، فبادرته مقترحةً تثبيت الكاميرا بفجوةٍ وجدتها داخل أحد الجدران، وضبط مؤقت الالتقاط ليتم التصوير تلقائيًا، والمشهد التالي لم يستغرق ثوانيَ معدودة، فبينما كان حازم يقوم بتثبيت الكاميرا موليًا ظهره لفريدة التي تحاول تسلق سور البئر للجلوس عليه، ولحظة أن ضغط على زر تتابع التصوير، انزلقت يداها لتهوي في البئر وهي تطلق صرخةً مدويةً انتزعته من مكانه مذعورًا.

***

تخترق والدة فريدة باب المستشفى في ذعر، ومن خلفها مريم، الأخت الصغرى لفريدة، تحاول اللحاق بها، والقلق والخوف تحولا إلى قدمين لا يتوقفان عن الحركة، اتصل بها حازم ليخبرها بأن فريدة شعرت ببعض الإرهاق، وانتقلا على إثره إلى المستشفى للاطمئنان عليها، وما زاد من قلقها طلبه بإحضار بعض الملابس الخاصة لها، والتأكيد على عدم إخبار والدتها حتى لا تُصاب بالذعر، وهو الأمر الذي فشلت في تنفيذه، فعيناها وشت بكل شيء قبل لسانها، لتهب الأم وتُبدّل ملابسها في ثوانٍ.

انطلقت الأم كالسهم نحو الاستقبال لتسأل عن ابنتها، ليخبرها الموظف المسئول بأنها محتجزة بالعناية المركزة، ركضت مذعورةً

وهي تقاوم الانهيار، والدموع تملأ عينيها وتشوّش خطواتها، في حين تشبثت مريم بذراعها في محاولةٍ مُجهضة لتهدئتها، حتى وصلا إلى غرفة العناية المركزة، ليجدا حازم مستندًا إلى الحائط الزجاجي، وعيناه لا تفارقان فريدة الممددة في سكونٍ لا يقطعه سوى رنين الأجهزة المحيطة بها، والمتصلة بعدة أسلاك لقياس مؤشرات النبض والحياة.

تَصِيحُ فتنتزعه من ثباته، تسأله عمّا حدث، ينظر لها بعينين تلمعان ليبدأ في سرد الموقف، وهي تستمع له في وجومٍ غريب، إلى أن انتهى.

- وبعدين؟

سألته مريم، ليزدرد ريقه مردفًا:

- أنا ارتبكت، ماكنتش عارف أعمل إيه! قعدت أزعق وأنادي على أي حد علشان ييجي يساعدني، فين وفين على ما لقيت واحد من أمن المتحف سمعني، اتصل بالإدارة وحاولنا نتكلم مع فريدة علشان نطمنها، بس كانت فاقدة الوعي، كلمت الإسعاف والمطافي، وبعتوا عربية ونزل اتنين على سلم وطلعوها، وبعدين نقلوها للمستشفى.

أطرق رأسه، وبصوتٍ أقل خفوتًا استطرد:

- ما بقيتش عارف أبلّغكم الخبر ده إزاي.

كانت الأم تسمع بدموعٍ متحجرة، دون أن تُجيب أو حتى تنظر إلى محدثها، مر أمام عينيها شريطٌ من الذكريات، منذ توفي زوجها وترك لها فريدة ومريم، وتحملت مسئوليتهما وحدها، رحل سندها الوحيد

في الحياة.

هي ليلى الدالي، تنتمي لجذور عائلة الدالي الثرية، صاحبة واحدة من أكبر شركات المقاولات، هي التي تنازلت عن حقها ونصيبها من ثراء أهلها يوم أن تمسكت بحبها ليوسف، والد فريدة ومريم، كان شرط والدها واضحًا: إما أن تنسى يوسف، أو تُحرَم من رغد الحياة إلى الأبد، اختياران لا ثالث لهما ولا يجتمعان، وكما كانت المفاضلة واضحةً ومباشرة، كان الاختيار قاطعًا وحازمًا دون تردد، رجَحت كِفَّةُ يوسف بالطبع، هبطت كِفَّته بقوةٍ لتطيح بكِفَّة ثروة أبيها العظيمة، وهو يوسف الموظف بوزارة الخارجية الذي تزوجته واستغنت به عن الدنيا وما فيها، والأجمل من أن تكتفي بأحدهم عن العالم بأسره، أن يُثبت لك مع مرور الأيام أنك لم تخطئ حين فعلت.

احتملا سويًا صعاب ومتاعب الحياة، ونجحا في اقتناص لحظات السعادة منها رغمًا عن أنفها، لم يختزلا أي مجهود لتوفير حياة كريمة لابنتيهما، لازمهما شعور الفخر وهما يشاهدان ثمرة حبهما تنمو وتكبر، أطلت عليهما سنواتٌ صعبة، لكن أبدًا لم ييأسا.

ألحت ليلى عليه ليسمح لها بأن تعمل وتساعده في مواجهة صعاب الحياة، لكنه كان دائم الرفض لهذه الفكرة، كان يراها - كما أخبرها مرارًا - ملكةً متوجة، تعرّف عليها وتزوجها ملكةً ويجب أن تظل كذلك، يجب ألا تندم يومًا على تشبثها به يوم أن تخلت عنها عائلتها، وأبدًا لم تفعل لحظة، حتى بعد وفاته ظلت صامدةً وهي تصارع أمواج الحياة وحدها، وما تكاد تتخطى واحدة حتى تلطمها الأخرى، لم يترك لها سوى مكافأة نهاية خدمته ومعاشٍ لا بأس به،

التحقت بالعمل بإحدى الجهات الحكومية لتضم دخلها إلى معاش زوجها وتنفق على أسرتها الصغيرة، ابتسمت لها الحياة عدة مرات، ولكن أغلب تلك المرات كانت سرعان ما تكتشف أنها ليست سوى ابتساماتٍ مُصطنعة، وكأن الحياة تخبرها أن القادم هو الأسوأ، لم تفرح لحظةً بعد وفاة زوجها كما فرحت يوم أن تقدم لها حازم لخطبة فريدة، شعرت ساعة أن رأته أنه ابنها الثالث الذي عاد من الغربة لتوه، وكذا شعر هو بالمسئولية تجاه عائلته الجديدة التي ملأت فراغ حياته.

- حضرتك والدتها؟

انتزعها صوت الطبيب المسئول عن حالة فريدة، لتهرع إليه مسرعةً للاطمئنان، ويتبعها حازم ومريم، وعيونهم متعلقة بالطبيب كمتهمين ينتظرون حكم البراءة.

- خير يا دكتور؟ طمِّني!

- خير إن شاء الله، هي حاليًا الحالة مستقرة.. بس الأهم إنها تفضل مستقرة الأربع وعشرين ساعة اللي جايين، بعدها نقدر نتطمن.

من خلفها يربت حازم بيده على كتفها مُطمئنًا، وهو يسأل الطبيب:

- هو إيه اللي حصلها؟

- ارتجاج في المخ، نتيجة الوقوع، مع خلعٍ بسيط بالكتف، ومن حسن حظها إن المياه خففت من حدة الارتطام.

هنا لم تتمالك ليلى نفسها لتفقد توازنها وتسقط فاقدة الوعي.

تستعيد ليلى وعيها لتجد نفسها ممدّدةً على الفراش بإحدى غرف المستشفى، يتدلّى بجانبها خرطومٌ متصلٌ بذراعها ليضخ المحاليل إلى أوردِتها، تنظر في وهنٍ إلى مريم الجالسة بجانبها، تُخفي بكفّيها وجهًا اغتصبه البكاء، فتُنادي عليها بصوتٍ خفيض، تنتفض من مجلسها لتمسح دموعها المُنهمرة، وتنحني على يدها تُقبّلها، ثم تحاول رسم ابتسامةٍ شاحبةٍ على وجهها، تسألها عن حالها، فتبادلها السؤال بسؤال:

- فريدة عاملة إيه؟

- كويسة وزي الفل، حازم بيخلّص إجراءات حجزها في المستشفى.

تشيح بوجهها بعيدًا لتبدأ في الانتحاب بصوتٍ مرتفع، وهي تردّد:

- فريدة بتروح مني يا مريم، بتروح مني.

***

بعد مرور ثلاثة أسابيع

منزل فريدة..

تدخل مريم غرفة أختها، تحمل صينية الطعام لتضعها على سطح المكتب، وتفتح النافذة فيغمر ضوءُ الشمس الغرفةَ بالكامل، تُنادي أختها:

- يلا يا ست فريدة، كفاية نوم، الفطار جاهز.

تستجيب فريدة في بطء، وهي تحاول فتح عينيها، وتسألها

عن الساعة، تجيبها بأن الساعة اقتربت من الثالثة، وهي تمد يدها لتلتقط ريموت التليفزيون وتضغط زر التشغيل، تُضيء الشاشة فتنتفض فريدة من فراشها لتلتصق بالجدار، وعيناها تحدّقان في شاشة التلفاز في ذعر، تدنو منها مريم في توجُّس، غير مدركةٍ لما يحدث، تحاول تهدئتها، وبمجرّد أن لمست كتفها حتى انتفضت مرةً أخرى من ثباتها، وهي تنظر لها جاحظةَ العينين، ترفع يدها المرتعشة في بطء، وهي تشير إلى التلفاز:

- إيه ده؟!

تنظر مريم في دهشةٍ إلى التلفاز في محاولةٍ لمعرفة ما يثير دهشتها، فلم تجد سوى فيلمٍ وثائقي عن الحيوانات البرية.

- فيلم وثائقي.

قالتها، لتزداد نظرة الذعر والرعب بعينيها وهجًا، ثم..

تسقط مغشيًا عليها.

***

لم تكن التجربة التي مرّت بها فريدة بالأمر الهيّن، فترةً لا يمكن نسيانها، أسبوعان كاملان فاقدةَ الوعي، لا تدري ما أصابها، حتى استعادت وعيها وبدأت مؤشراتها تستقر على المعدلات الطبيعية، عانى كل من حولها خلال تلك الفترة، انقطعت والدتها عن العمل، فلم تكن في حالٍ يسمح لها بالتحدُّث وممارسة حياتها الطبيعية كالمعتاد، خاصّةً بعد أن أصابها حادث ابنتها بشبه شللٍ بإحدى رجليها، جعل حركتها صعبةً بعض الشيء، حتى حازم لم يكن على

طبيعته، فقد نشاطه وحيويته، انقلب يومه رأسًا على عقب، يُنهي عمله كل يوم ثم يذهب للاطمئنان عليها بالمستشفى، لم يغادره القلق حتى بعد أن استعادت وعيها وحيويتها، كان ثمّة شعورٌ يلازمه بأن شيئًا ما لم يعد كما كان.

شيئًا في نظرتها

في حديثها

في إحساسه بها تغيّر

أصبحت قليلةَ الكلام، غريبةَ الأطوار، منطويةً بغرفتها، لا تغادرها سوى للضرورة القصوى، تأكل القليل بكثيرٍ من التوسّل والرجاء، حالةٌ من الوجوم أصابتها، وأصابت كل من حولها بالحيرة والحزن.

كان حازم في ذلك الوقت بمكتبه، مستغرقًا في حديثِ عملٍ مع زميله وصديقه هاني، حينما قطع حديثهما رنينُ هاتفه المحمول، أجاب ليستغرق في الحديث لمدة دقائق، لاحظ هاني خلالها تغيُّر ملامحه عمّا قبل المكالمة، أنهى حازم مكالمته وقد بدا عليه الوجوم والتفكير، وكأنّه نسي وجوده معه بالمكتب، ليقطع الأخير شروده:

- مالك يا حازم؟

نظر إليه في تفكيرٍ برهةً قبل أن يجيب:

- مش عارف.

قطّب هاني جبينه في محاولةٍ للفهم، زفر حازم نفسَه وهو يتراجع بظهره ليستند بمقعده، عاقدًا كفَّيه:

- فريدة من ساعة ما خرجت من المستشفى مش طبيعية يا هاني.

- عادي جدًا يا حازم، اللي حصلها مش شوية برضه.

- أيوة، أنا عارف إن اللي حصلها مش شوية، بس من ساعة ما رجعت البيت وهي ما بتتكلمش كتير، ودائمًا مسهمة، وكأنها في ملكوت تاني، منعزلة وقافلة على نفسها، ولا بتاكل ولا بتشرب.

بدا التفكير على هاني وهو يحاول إيجاد تفسيرٍ لهذه الأعراض:

- ممكن تكون التجربة اللي مرّت بيها أثّرت فيها نفسيًا، ده طبيعي جدًا، أنا أعرف إن حالات الغيبوبة اللي بتطول كده أصحابها بياخدوا فترة على ما يرجعوا لطبيعتهم.

- أو ما ترجعش.

فاجأه ردّه القاسي، فحاول التخفيف عنه:

- بس أهم حاجة تخلّيكوا جنبها الفترة دي، هي محتاجاكم أكتر من الأول.

هز رأسه بعدم اقتناع، ليطالبه هاني بالمغادرة والاطمئنان عليها:

- والشغل؟

- يا عم كفاياك شغل، قوم إنت مالكش دعوة، أنا قاعد شوية، بس ابقى عد الجمايل.

وبالفعل قام يجمع متعلّقاته ويهم بالرحيل، يُطرَق الباب وتدخل سهام:

- ألف سلامة على فريدة.

يكتم اندهاشه من معرفة اسمها، لا يذكر أنّه أخبرها به من قبل، لكنّه في النهاية يتجاهل الأمر ويشكرها، تقول بنبرة شفقةٍ لا رياء فيها:

- لو احتجت أي حاجة اتصل بيّا.

- أكيد، بعد إذنك، أنا أصلي كنت لسه نازل أروح لها.

أنهى الحديث مبتسمًا في امتنانٍ متكلّف، ثم غادر ليتركها ساهِمةَ الطرف، قبل أن تلاحظ نظرات هاني لها، فتتدارك الأمر وتنصرف في إحراجٍ صامت.

***

يقود سيارته وعيناه تتابعان الطريق، بينما تُغلّف محيط السيارة موسيقى مقطوعة "الهروب" لـ(Ludovico) التي يعشقها، ودون مقدماتٍ ينعزل عن الوجود، ينزاح الطريق جانبًا وتحل صورة أمه في مشهدٍ سينمائي لذكرى قديمة، ذكرى ضبابية برزت من العدم دون سببٍ أو داعٍ، تقف أمه أمام خزانة الملابس المفتوحة على مصراعيها، ترتّب أشيائه ومتعلّقاته، تمسك قميصه المغسول وتقرّبه من أنفها لتشمّه، تغمض عينيها في زهو ثم تطويه وتضعه على الرف.

(مرحلة جديدة.. استعد، فالقادم أسوأ)

هكذا صاح التلفاز الذي يجلس أمامه حازم، ممسكًا بذراع التحكّم، ضاغطًا بعزمه على أزراره، وهو يحدّق في الشاشة، ونشوةُ التحدي قد أضاءت عينيه، وهو يحاول الفوز في سباق السيارات.

- سيب اللعبة دي بقى وشوف مستقبلك.

بامتعاض:

- يا ماما بحب اللعبة دي أوي.

تجيبه دون أن تلتفت إليه:

- حتى الحب يا حبيبي لازم يكون له حدود.

- يعني إيه يا ماما؟

- يعني ما تتعلّقش بحاجة أوي، عشان لو حبك ليها زاد عن حدّه.. هتموّتك.

(خذ حذرك)

ترتخي قبضتا يده عن ذراع التحكُّم، وهو يلتفت إليها بدهشةٍ بريئة:

- تموّتني؟!

(حياتك في خطر)

- أيوة.

محاولًا استيعاب كلماتها، يَغفُل عن السيارة التي انحرفت يمينًا فتصطدم بجدارٍ إسمنتي وتنفجر، وتظهر على الشاشة جملةٌ كُتبت بخط أحمر قانٍ:

(أنت ميت)

بغضب:

- عاجبك كده؟! أديني مُت.

تضحك:

- كلنا هنموت يا حبيبي.

بعناد:

- طب مش هسيبها.

يضغط زرًا يمنحه فرصةَ حياةٍ أُخرى لتبدأ اللعبة من جديد.

(إن كنت تعتقد أنك نجوت... فكر مرةً أخرى، واستعد، فالقادم أسوأ)

يشق الضبابَ ضوءٌ ساطعٌ مترددٌ، ويصرخ بوقٌ تحذيري من سيارةٍ قادمةٍ بأقصى سرعة، تجثم في إصرار، فينتفض حازم فزعًا وقد استفاق من حلم يقظته، يدير المقود بكل ما أوتي من قوة، لينجو من الاصطدام بأعجوبة.

في صالة منزل فريدة يجلس حازم مع والدتها، يتحدثان عن آخر تطورات حالتها، استغل فرصة عدم تواجدها، حيث كانت بغرفتها ترتدي ملابسها، وحاول بث الطمأنينة في قلب أمها، وخاصةً بعد أن أصبح حالها لا يُرثى له، مؤكدًا على ضرورة التظاهر أمامها بأن كل شيءٍ على ما يرام، فهذا يساعدها على عبور الكبوة التي ألمّت بها.

لم يقطع حديثهما سوى صوت باب غرفة فريدة، وهو يعلن عن قدومها، فاعتدل في موضعه راسمًا على شفتيه ابتسامةً بدت

مُصطنعة، وهو يصافحها:

- إزيك يا فريدة؟

- كويسة الحمد لله، إنت عامل إيه؟

قالتها وهي تجلس على المقعد المقابل في جمود، دون أن تبادله الابتسام، فعادت ملامح القلق تغزو خلجاته وهو يقول إنَّه بخير، ولا ينقصه سوى الاطمئنان عليها، بنفاد صبرٍ أكدت على أنَّها صارت أفضل وملَّت إقامتها التي طالت بالمنزل.

- إن شاء الله هترجعي شغلك، بس لما نطمن عليكي و...

زجرته صائحةً:

- أنا بقيت كويسة قولت، إنت ما بتفهمش؟!

ذُهل من ردِّها غير المألوف، ولاحظ ارتباك والدتها التي همَّت بنهرها، لولا أن استوقفها بإشارةٍ من يده، موجِّهًا حديثه إلى فريدة:

- أنا اللي يهمني إنِّك تبقي بخير.

غادرت والدتها المجلس مُتحجِّجةً بالانشغال بشيءٍ ما، لينهض حازم ويجلس بالمقعد المجاور لفريدة، مُمسكًا بيدها، وهو يسألها عمَّا يغضبها.

ولأول مرة منذ جلوسها معه، نظرت في عينيه مُجيبةً:

- معلش استحملني اليومين دول، أنا نفسي حاسة إني مش طبيعية، الفترة اللي فاتت كانت أصعب فترة مرَّت عليَّا، وحاسة بالوحدة على طول.

ثم انخرطت في بكاءٍ صامت، لثم أناملها مُعقِّبًا:

- أنا أستحملك العمر كله.

مسحت دموعها، وبابتسامةٍ مزيفة سألته عن أحواله، استمر النقاش بينهما لدقائق، قبل أن يقطعه دخول مريم لتصافح حازم، وتُذكِّر أختها بميعاد الدواء.

- كمان شوية يا مريم، مش قادرة دلوقتي.

- لا يا حبيبتي، ما ينفعش، لازم تمشي على الدوا في مواعيده زي ما الدكتور قال.

أمام إصرارها، اتجهت فريدة إلى غرفتها امتثالًا، في حين اقتربت مريم من حازم ليبادرها قائلًا:

- قولي لي بالتفصيل إيه اللي حصل؟ مكالمتك النهارده في الشغل قلقتني.

حكت له مريم ما حدث صباحًا حين حاولت إيقاظها، ليستغرق في تفكيرٍ طويل..

***

(فالقادم أسوأ)

في طريق العودة ظل حازم شاردًا، تمتلئ رأسه بعلامات استفهامٍ يبحث لها عن إجابات، ضوضاء عقله تُضاهي ضوضاء طوكيو ذاتها، رفع الهاتف وطلب هاني، يسأله عن مكانه:

- في الصومعة.

- طب خليك عندك، أنا جاي لك.

***

في منطقة عين شمس، حيث يقع أحد المقاهي التاريخية العتيقة ذات الطراز القديم، بجدران لو لها أن تتكلم لاجترت الكثير والكثير من الحكايات والأسرار التي عاشتها عبر السنين، ضوضاء المركبات التي اختلطت بأصوات النرد وضربات أحجار الدومينو، مع رائحة معسلٍ نفّاذة، ووجوه تتابع مباراةً ما في شغف، وآذانٍ قد أسرها صوت أم كلثوم وهو يصدح في الخلفية:

اللي فات وياك يا روحي بعود إليه

واللي عشته معاك رجعت أعيش عليه

وسط هذا المحيط الأسطوري الرائع، الذي لو عاشه شكسبير لما اكتفى بمسرحياته الثماني والثلاثين، يجلس هاني يمارس هوايته المسائية لكل يوم، ألا وهي تدخين النرجيلة مع شرب أقداح القهوة، المشروب المفضل له، على فتراتٍ منتظمة خلال فترة بقائه، التي لا يكف خلالها عن القراءة.

هاني فريد عبد الحي، يبلغ من العمر تسعةً وثلاثين عامًا، يعيش بمنطقة عين شمس، مُمتلئ الجسم، قمحي البشرة، خفيف شعر الرأس، له ذاك الطابع الذي يصاحب الأشخاص الممتلئين من خفة دم وطيبةٍ هي أقرب إلى السذاجة.

تعرّف على حازم يوم أن خطت قدماه الشركة، وجد كل منهما ما

ينقصه في الآخر، حازم وجد فيه خفة الدم والسخرية من الحياة وعدم الاكتراث، بينما الآخر وجد في حازم الجدية والدقة ورجاحة العقل، ورغم بعض المتناقضات المتباينة بينهما، إلا أنَّهما وقَّعا معًا عقد صداقةٍ غير مكتوب وغير محدد الأجل.

فالأصدقاء ليسوا سوى مجموعةٍ من البشر ارتضوا العمى عن عيوب بعضهم البعض، لم يتردد هاني يومًا عن البوح لحازم بمشاكله وأسراره الشخصية، وكذلك حازم، وجد فيه من يأتمنه على صعوباته ومتاعبه.

حكى له ما طرأ على حياته الشخصية مؤخرًا من أحداثٍ صعبة، كان هاني يمثّل له الملجأ والمفر كلما ازدحمت الأفكار برأسه، ولذلك كان أول من تذكّره وطلب لقاءه ليفرغ معه شحنته الداخلية، حكى له ما حدث اليوم بين مريم وفريدة.

لم يقاطعه حتى انتهى من السرد تمامًا، ثم سحب نفسًا عميقًا من الشيشة وكتمه، ثم أخيرًا، وبعد طول تفكير، أعلنها في ثقة:

- في حاجة غلط.

كتم حازم غيظه ضاغطًا على أسنانه:

- لا يا راجل؟! قلت إيه جديد إنت بقى؟ ما أنا قلت كده الصبح، قلت لي التغيرات دي طبيعية.

- طب ما تعرضها على دكتور نفسي يا حازم، وأنا أعرف واحد كان صاحب والدي الله يرحمه، شاطر وحبيب أوي، أو ممكن تكبّر دماغك من أساسه وتركز مع سهام شوية، دي بتحبك وما بتشيلش عينها من

عليك، يا ابني كلهم بعد أول شهر جواز بيبقوا شبه عم مصطفى بتاع البوفيه.

- أركز مع سهام؟! طب ابقى خلّي الدكتور النفسي ده يعالجك، عشان الجواز خلاص خلاك ضربت.

قالها وغادر المقهى، ليسحب هاني نفسًا عميقًا من النرجيلة ويهز رأسه في تأثر.

***

في تمام الثالثة صباحًا، يعلو رنين الهاتف لينتزع حازم من ثباته فزعًا، فيلتقطه وينظر بنصف عينٍ لاسم المتصل قبل أن يجيب بأنفاسٍ لاهثة:

- أيوة يا ماما، في إيه؟

- حازم، تعالى بسرعة.

- فريدة حصلها حاجة؟

- ما تتأخرش.

قالتها وأنهت المكالمة.

***

قبل المكالمة الأخيرة بساعة..

تشعر مريم بالعطش، فتتوجه إلى المطبخ وتلتقط زجاجة مياه من الثلاجة لتروي ظمأها، تشرب، وبينما هي تعود لحجرتها تسمع

صوت غناء، تجفل برهةً لمعرفة مصدره حتى تدرك أنه قادم من غرفة أختها، تقترب ببطء من باب الغرفة لتلصق أذنها به وهي ثرهف السمع، فإذا بالصوت ينقطع، فتستعيذ بالله وتهم عائدةً لغرفتها قبل أن تتوقف مرةً أخرى ويساورها القلق من جديد، تعود للاطمئنان على أختها، تطرق في هدوء قبل أن تدير المقبض لتفتح الباب، وهو يصدر صريرًا يُحطّم الأعصاب، كاشفًا عن غرفة تغرق في ظلامٍ كظلام الرحم، تتحسس أزرار الإضاءة في توجسٍ ورهبة حتى تصل لأحدها وتضغط، ليبدأ مصباح الفلورسنت في إرسال ومضاتٍ متقطعة طنانة، وفجأة تلمح ظهر امرأة تجلس أمام المرآة، ويظهر وجهها في الانعكاس وهي تنظر بعينٍ يسرى جاحظة، ورعشةٍ متتابعة بالأخرى، في غِل وكرهٍ شديدين، وهي تصرخ قائلةً:

- ما بكِ أيتها العاهرة؟!

قالتها بالإنجليزية تامة، لتطلق مريم صرخةً مدوية انتزعت أمها من فراشها، وتهرع من غرفتها لتجد مريم مغشيًا عليها، بينما كانت فريدة تلتصق بالحائط المقابل في هلع، وهي تُخفي وجهها بكفيها، فتصيح فيها:

- إيه اللي حصل؟ مالها مريم؟

بلا رد، تنحني للاطمئنان عليها وتحاول مساعدتها في استعادة وعيها، وهي تنظر لفريدة التي انتابتها حالة من البكاء الهستيريّ، فلا تدري من تُغيث أولًا؟

تهرع إلى الهاتف وتطلب حازم.

***

يصل حازم ليجد مريم ووالدتها في انتظاره بعيونٍ أدماها البكاء، حتى قطتها، لاحظ أنها منكمشة بأحد أركان المنزل في ذعر، ولم تُقبل عليه كعادتها كلما رأته، حكيا له ما حدث بالتفصيل وهو ينصت في جمود، لا يتحرك منه سوى عينان زائغتان تنظران إلى اللا شيء، استغرق دقائق حتى استطاع استيعاب ما قيل له، قبل أن يجمع شتات فكره مُحدثًا نفسه بصوتٍ خفيض:

- إزاي فريدة تقول كده؟

فتنظر إليه مريم دامعة العينين في شرود، وهي تسترجع ما حدث:

- دي مش فريدة يا حازم، دي لا يمكن تكون فريدة، أنا مستحيل أنسى نظرتها ولا نبرة صوتها.

***

في اليوم التالي، أمام أحد الأبراج السكنية بمنطقة مصر الجديدة، يُغادر حازم سيارته بصحبة هاني وفريدة، واضعًا يده على كتف الأخيرة في احتواءٍ وسكينة، ليعبروا بخطوةٍ جنائزية المدخل الزجاجي، مرورًا بالحاجز الأمني، قبل أن يصلوا لفرد الأمن المرتكز براحتيه على مكتبٍ خشبي، يراقب عدة شاشات أمامه، ومُثبِّث في خصره جهاز اتصالٍ لاسلكي يصدر العديد من الأصوات المشوشة غير الواضحة.

يتقدمهم هاني بالسؤال عن شيءٍ ما، لم يستغرق الاستفسار ثواني حتى قام ثلاثتهم باستقلال المصعد، ثم الضغط على زر الطابق

الرابع، ينغلق باب المصعد ثم يبدأ في الصعود، فتشعر فريدة وكأن روحها تُسحب معه، فتميل مغمضة العينين برأسها على كتف حازم، وتحتضنه بذراعها من الخلف، فيربت على رأسها في حنو، حتى يتوقف المصعد معلنًا وصولهم، يتلفت هاني حوله عدة مرات قبل أن تستقر عينيه على أحد الأبواب، فيشير لهما باتباعه ليعبروا بابًا عُلِّقت عليه يافطة كُتب عليها:

دكتور يعقوب الزهيري

استشاري أمراض نفسية

وعضو الكلية الملكية لطب النفس

يطلب هاني من ممرضة الاستقبال إخبار الطبيب بحضورهم في الميعاد المتفق عليه، فتغيب ثوانيَ بالداخل قبل أن تخرج وتتوجه إلى فريدة بابتسامة:

- اتفضلي معايا.

- أتفضل فين؟

- هنتطمن ع الضغط ونسبة السكر.

يقوم حازم بصحبة فريدة، فتمنعه الممرضة قائلةً:

- هي لوحدها لو سمحت.

فتشعر فريدة بالقلق وتقبض براحتها على يد حازم، الذي بادرها بالابتسام وهو يربت على كتفها لتطمئن، تستكين وتُرخي قبضتها تاركةً إياه، وتدلف مع الممرضة إلى غرفةٍ جانبية صغيرة لإجراء

التحاليل.

يخرج أحد الأطباء المساعدين من غرفة الطبيب ليتوجه إلى حازم وهاني، ليخبرهما أن الدكتور يعقوب في انتظارهما بالداخل، وبمجرد أن دخلا استقبلهما مصافحًا بابتسامةٍ لا تخلو من الود، ثم يدعوهما للجلوس قبل أن يقول:

- أنا حبيت أقعد معاكم لوحدكم الأول قبل ما أقابل فريدة، وخليت الممرضة تشغلها شوية على ما نخلص كلامنا، هاني كلمني النهارده علشان أكشف عليها، بالرغم من إنه عارف إن الحجز في العيادة قبلها بشهر على الأقل، بس هو استغل حبي لوالده، ومسكني من إيدي اللي بتوجعني.

قالها مبتسمًا وهو ينظر لهاني، الذي بادله عبارات الشكر والعرفان.

- احكي لي إيه المشكلة؟ كل اللي عرفته إن اسمها فريدة.

تساءل موجهًا كلامه لحازم، وهو يرتدي نظارته ممسكًا بقلمه لتدوين بعض النقاط، حكى له حازم ما حدث تفصيلًا منذ لحظة دخولها المستشفى بعد الحادث، مرورًا بالتغيرات التي طرأت عليها، انتهاءً بالموقف الأخير، ظل الطبيب ينصت له باهتمام دون مقاطعة، مُدوِّنًا ملاحظاته، حتى أنهى حازم كلامه، ثم ألقى عليه بعض الأسئلة، كوَّن يعقوب شكوكه المبدئية وضغط على أحد الأزرار بجانبه لتدخل فريدة بصحبة الممرضة، قام من مجلسه وصافحها ودعاها للجلوس، وضعت الممرضة تقريرًا على المكتب قبل أن تغادر في هدوء.

تظاهر الطبيب بالانشغال، بينما راح ينظر إليها خِلسة، انعكست إضاءة شاشة الكمبيوتر على زجاج نظارته لتُضفي عليه مزيدًا من الجدية، بينما انشغلت هي في التطلع لمحتويات الغرفة.

غرفة تحتوي على أثاثٍ اتسم بالفخامة والرقي، مكتبٍ خشبي ضخم يحمل العديد من الأوراق وحاسوبًا وأباجورةً مضيئة، يعلوه لوحة الرجل الفيتروفي لليوناردو دافنشي، وبالحائط المقابل له تقع أكبر مكتبة قد تراها في حياتك، تمتد بعرض الغرفة وترتفع من الأرض وحتى السقف، عليها العديد من الكتب والمراجع التي لو امتلكها فرويد لمات فرحًا قبل أن يقتله السرطان، تتوسط تلك المكتبة شاشة تلفازٍ عملاقة تعرض شيئًا ما دون صوت، أيضًا مقاعد جلدية وثيرة موزعة بعناية ودقة، وتلك الأريكة المميّزة للعيادات النفسية تُغريك بالاستلقاء ما تبقى لك من العمر، وبجانبها جهاز تسجيلٍ صوتي لتوثيق بعض الحالات صوتيًا، مُعلّق على حائطٍ آخر مجموعة من شهادات التخرج وشهادات شرفية وتقديرية لا حصر لها، كل هذا تغلفه إضاءة خافتة وموسيقى حالمة لا تدري مصدرها، طابعٌ أرستقراطي محبب للنفس، ينم عن ذوقٍ رفيع لا يتوقف عند الأثاث فقط، بل يمتد إلى رب المكان أيضًا.

الدكتور يعقوب الزهيري، صاحب الخمسة وستين عامًا، طويل القامة، فاتح اللون، أبيض شعر الرأس واللحية، لا تفارقه الابتسامة، يرتدي حلةً سوداء وقميصًا لبنيًا وربطة عنقٍ كحلية اللون، لا ينقصه سوى الغليون ليصبح نجمًا من نجوم هوليوود، لاحظ ملامح الأريحية والاسترخاء على قسمات وجه فريدة، فقرر أنه قد حان الوقت.

سأل عن حالها، فأجابت باقتضاب، ليستطرد:

- ممكن نتكلم مع بعض شوية؟

قالها، لينهض كل من هاني وحازم، ليقول الأخير موجهًا كلامه لها:

- إحنا هنستنى برة شوية.

أومأت برأسها ألا مشكلة، ليخرج حازم وهاني ويُغلقا الباب خلفهما، وتبدأ الجلسة.

***

- إيه الأخبار؟ مستريحة كده ولا تحبي تمدّي عالشيزلونج زي الأفلام العربي؟

قالها مازحًا وهو ينهض من مقعده، فابتسمت لأول مرة قائلة:

- لا، أنا كده كويسة.

أمسك وحدة التحكّم وضغط زرًا ما ليعرض فيديو لشاطئ البحر.

- بتشتغلي إيه يا فريدة؟

- مصممة جرافيكس.

- جميل جدًا، احكيلي بقى يا سِتّي.

- أحكيلك عن إيه؟

- أي حاجة عايزة تحكيها، أي حاجة عايزة تقوليها، عايز أسمعك.

- مفيش حاجة معيّنة في دماغي.

- طب ممكن أسألك سؤال؟

- اتفضل.

- إنتِ جاية ليه؟

اندهشت من سؤاله قائلة:

- أنا ما كنتش عايزة آجي بصراحة، بس بعد ضغط ماما وحازم جيت.

- واضح إنِك بتحبيهم قوي.

- آه طبعًا، أكيد.

- ممكن تكلّميني عن نفسك شوية؟

- أنا واحدة عادية جدًا، عشت طفولة طبيعية وسعيدة جدًا، معنديش أي عُقَد نفسية ولا مشاكل اجتماعية، لو ده اللي إنت عايز تعرفه.

ابتسم قائلًا:

- بصي يا فريدة، واضح إن إنتِ إنسانة مثقفة وناضجة فكريًا، وأكيد كمان عارفة إنك هنا علشان في مشكلة، وأنا هنا علشان أساعدك، فممكن نتفق على اتفاق؟

أومأت برأسها ليستطرد:

- لازم تساعديني، علشان أنا مش هقدر أعمل أي حاجة من غير مساعدتك، وإلّا يبقى إحنا بنضيّع وقتنا على الفاضي.

- أنا فعلًا الفترة الأخيرة دي حاسة إن في حاجة غلط، حاسة إني تايهة ومستغربة نفسي جدًا، في تفاصيل صغيرة بتضيع مني خلال يومي، وبنسى كتير قوي، ونومي بقى صعب جدًا، مش عارفة إيه اللي بيحصلي، كل اللي عارفاه إني محتاجة أرجع تاني زي الأول.

شعر يعقوب أنه وضع أول وأهم قدم في رحلة البحث عن مكمن المشكلة، فأدار المسجّل الصوتي.

- ممكن توصفيلي اللي حصل في المتحف بالتفصيل؟

- مش فاكرة غير إني كنت بحاول أقعد على السور علشان أتصوّر، و... و...

قطّبت حاجبيها في ضيق، كأنها تذكّرت شيئًا كانت تحاول نسيانه، وصوت أنفاسها يعلو أكثر، قبل أن تستطرد:

- ووقعت في البير.

- وبعدين؟

- صحيت لقيت نفسي في المستشفى.

- بس؟

- بس.

- مش فاكرة إيه اللي حصل لما وقعتي؟

أجابت وصوت أنفاسها يعلو أكثر وأكثر:

- لأ، مش فاكرة.

- ولا فاكرة حسّيتي بإيه ساعتها؟

صاحت في عصبية وهي ترتعش:

- قلت مش فاكرة!

صمت برهة قبل أن ينتقل بالحديث من تلك النقطة، ليبدأ في إلقاء العديد من الأسئلة والاستفسارات عن جوانب حياتها وعلاقتها بعائلتها وخطيبها، عرض عليها العديد من الصور والرسومات ليسألها عن رؤيتها، وعن ماذا تعبّر من وجهة نظرها، طلب منها إغماض عينيها وإطلاق العنان لعقلها لتخيّل مواقف افتراضية معيّنة وذكر ردود أفعالها.

انتهى الطبيب من جلسة العلاج بعد ساعة كاملة، ليطلب منها الخروج والانتظار بالخارج، وطلب من الممرضة استدعاء حازم ليخبره أن ما أصابها ليس إلّا مجرّد اضطرابات نفسية.

- اضطرابات نفسية؟

قالها حازم في تساؤل، ليبدأ الطبيب في الشرح:

- الاضطرابات دي بنسميها اضطرابات ما بعد الصدمة (PTSD)، وبتحصل للأشخاص اللي بيمرّوا بحوادث أو مواقف صعبة، وبيشوفوا كوابيس متعلّقة بالحادثة اللي حصلتله، وبيتجنب أي نشاط أو حاجة تفكّره بالحادث ده، وبيشعر إن جسمه متخدّر ومعندوش أي استعداد لعمل أي شيء، ويدخل بعد كده في حالة انزواء، والاضطرابات دي بتخلّي هرمون الأدرينالين في أعلى مستوياته، علشان كده بتلاقي المريض دايمًا متحفّز ومتوتر ومش

عارف ينام، كل ده بيخلق عنده حذرًا مرضيًا من الآخرين، حتى لو كانوا أقرب الناس ليه، وبالتالي نرفزة وعصبية وردود أفعال مبالغ فيها.

- والعلاج؟

- أنا كتبتلها على شوية أدوية مضادة للاكتئاب هنمشي عليها فترة كبيرة، وكمان شوية مهدئات، بس دي عند اللزوم، وده دوري أنا.

قالها وهو يخط شيئًا ما في روشتة، ثم أخرج قرصًا مدمجًا ناوله لحازم وهو يقول:

- دوركم بقى أهم من الأدوية دي مليون مرة، تحاولوا تخرجوها من الجو ده، تخليكوا جنبها أطول وقت ممكن، لو تعرفوا تسافروا تغيروا جو ده هيساعدها كتير، والسي دي ده فيه تمارين تساعد على الاسترخاء.

- وفي حالة لو العلاج ده ما جابش نتيجة؟

- هنضطر بقى نجرّب الـCBT[1] والـEMDR[2].

قالها لتظهر علامات الاستفهام على وجه حازم، فيبادره الطبيب قائلًا:

- مش عايزين نسبق الأحداث، خلّينا ماشيين خطوة بخطوة، وأشوفها بعد شهر، أي تطوّرات تحصل قبل الميعاد ده تكلّمني فورًا.

***

بعد شهرين...

لم يَجِد أمرٌ في حالة فريدة، لم تتقدّم ولم تسُؤ أكثر، انتظمت في تناول أدويتها، حرص كل من والدتها وحازم على دعمها علاجيًا ومعنويًا، توالت جلساتها حتى صرّح لها الطبيب بممارسة عملها مرة أخرى، مع التشديد على عدم الاندفاع فيه بكامل طاقتها، اعتذرت عن استكمال مشروعها الأخير الخاص بتصميم مادة إعلانية عن السياحة، لتتولّاه زميلتها بالعمل، نظرًا لما يتطلّبه من جهد بدني لا يتناسب مع وضعها الصحي الحالي، فضلًا عمّا صاحبته المهمة من ذكرى قد تكون الأسوأ على مدار حياتها، باختصار، التدرّجية مطلوبة في جميع الأحوال، حتى في علاقتها مع حازم، أوصاه الطبيب بالتريّث في ممارسة مشاعره معها، فحالة الانطواء والوحدة التي تصيب المريض النفسي تبعده مسافات وأميالًا عن أقرب الأشخاص إليه، كانت التعليمات واضحة ومحدّدة (خليك جنبها من غير ما تحسّسها إن في مشكلة، توقّع ردود أفعال غير معتادة منها، بالتدريج حياتها هترجع طبيعية).

وبالفعل، مع مرور الوقت استقرّت حالتها بعض الشيء، عادت لممارسة أنشطتها اليومية بطريقة طبيعية، توالت خروجاتهما كالمعتاد، وقل شرودها وانطواؤها، لكنه لم يختفِ تمامًا، أرجع حازم الأمر إلى الوقت، فالوقت كفيل بمداواة أصعب كوارث الماضي، انخرط حازم في عمله مرة أخرى، واتفق مع والدة فريدة على تحديد موعد الزواج على أن يكون بعد شهرين، كان يُنهي عمله ثم يقابل فريدة ليتجوّلا سويًا بين المحلات لاختيار ما يناسبهما من أثاث وديكور وأجهزة.

مضت حياتهما على ما يرام، إلى أن...

***

(إن كنت تعتقد أنك نجوت... ففكّر مرةً أخرى واستعدّ، فالقادم أسوأ)

في أحد المطاعم بمول سيتي ستارز، يجلس كل من حازم وفريدة مع هاني وزوجته إيريني رمزي واصف، مسيحية على قدرٍ من الجمال والطيبة، قصيرة الطول والشّعر، ذات كتفين عريضين وبشرة سمراء وعينين بنيّتين وأنفٍ دقيق، ربّة منزل تصغر هاني بعامٍ واحد، أحبّا بعضهما في أثناء فترة الدراسة الجامعية، واجها العديد من المشاكل في أثناء تلك الفترة، أنت تعرف نظرة المجتمع الشرقي للمتحابين عمومًا، فما بالك بعلاقة بين اثنين متحابين، كل منهما يدين بعقيدة تختلف عن الآخر.

لم تتوقّف دائرة المعاناة عند تلك النقطة وحسب، بل اتّسع قطرها ليشمل أهل الطرفين، واجه رفض أهله الشديد بالحكمة والتعقّل، إلى أن انتزع الموافقة على مضض، ولم يكن موقف أهل إيريني يختلف كثيرًا عن موقف أهله، لكنه كان أقل حدّة.

تم الزواج، وانعزل الزوجان عن جذورهما إلى أن ظهرت معالم الحمل على إيريني، لتزيل آثار الجفاء بين أهل الطرفين مرةً أخرى، وتنشأ علاقة لم تتعد بعض المكالمات الهاتفية، توطّدت علاقتها بفريدة خلال الفترة الأخيرة بعد أن حكى لها زوجها ظروفها الصحية، اطمأنّت عليها عدة مرات من خلال الهاتف، ثم تطوّرت العلاقة للزيارات، وصولًا إلى أول لقاء خارج جدران المنزل يجمع بين الأربعة لتناول الغداء سويًا.

- أنا مبسوطة قوي إني شوفتك النهارده.

قالتها إيريني موجّهةً كلامها إلى فريدة، التي بادلتها المجاملة:

- وأنا كمان والله يا إيريني، ربنا يعلم أنا ارتحتلك قد إيه.

في حين تبادل حازم وهاني النظرات قبل أن يقول الأخير للأول مازحًا:

- شكلهم كده اتفقوا علينا خلاص، ربنا يستر.

فيرد حازم:

- وإنت مالك بيهم؟ ما تسيبهم يا أخي، إنت حاشر مناخيرك في كل حاجة كده؟

- يا سيدي ربنا يهني سعيد بسعيدة، بس ما ترجعش تشتكي.

يضحك الجميع، بينما يرن هاتف حازم، فيُخرجه ويرى اسم سهام، فيرفض المكالمة ويغلق الهاتف.

تنظر إيريني إلى فريدة قائلة:

- المهم بقى، مش ناويين تشدّوا حيلكم كده؟ عايزين نفرح بيكم.

- والله يا إيريني أنا وحازم دايخين كل يوم في حتّة شكل، هي الشقة شبه جاهزة، بس إنتِ عارفة بقى التفاصيل الأخيرة دي بتاخد وقت شوية، المهم إنتِ طمّنيني، أخبار البيبي إيه؟

- نشكر ربنا على كل حال، داخلة على السابع أهو، ادعيلي علشان خلاص قربت أجيب، ما بيبطلش ضرب وحركة.

فيقول هاني متفاخرًا بخبث، وهو يلوك شيئًا ما:

- طالع جِن زي أبوه.

فتضحك فريدة، وهي تجثم بأصابعها الخمسة على وجهه:

- الله أكبر في عينك، هي راضية يا سيدي، حد اشتكالك؟!

يعقّب حازم على كلامها:

- هو كده زي الدب على طول.

فتنظر إيريني إلى هاني بنظرة تهديد ووعيد:

- ماشي، اصبر علي لما نروح.

يضحك الجميع مرةً أخرى، قبل أن تَهُم فريدة بالوقوف، موجّهةً كلامها لحازم لتخبره أنها متجهة إلى دورة المياه.

فتبادرها إيريني، وهي مادّة ذراعها إليها:

- خديني معاكي يا فريدة.

فتلتقط فريدة يديها، وهي تجذبها لتساعدها على الوقوف، ثم يتّجهان إلى دورة المياه التي تقع في ممر جانبي يفصلها عن باقي المطعم بابٌ خشبي، وتمد يديها لتفتح الباب.

وفجأة...

يخرج أحد الأشخاص من الجهة المقابلة متعجّلًا، ليدفع الباب ويصطدم ببطن إيريني بقوة، لتطلق الأخيرة صرخة ألم انتزعت هاني وحازم من مقعديهما، ليهرعا مسرعين إليها، ثم يتوقّفا في

ذهول أمام ما يحدث، فإيريني منحنية تضع يدها على بطنها خوفًا على جنينها، وترسم الصليب بيدها الأخرى على رأسها وكتفيها.

لكن ليس هذا ما أثار دهشتهما.

فعلى الجانب الآخر تقف فريدة، وهي تقبض على رقبة الرجل، تنظر إليه في غضب وثبات، وقد اختلجت عينها اليمنى في تتابع، وهي تصرخ:

- ليه؟ ليه!

لم يستطع الرجل المقاومة، ليبدو كمن يلفظ أنفاسه الأخيرة، وقد احمر وجهه وفغر فاه محاولًا التقاط الأنفاس.

اقترب حازم ليطلب منها ترك الرجل لشأنه، لكنها لم تستجب، وقد تحجّرت يدها وعيناها صوبه، فقبض حازم على ذراعها لينزع أظفارها من رقبة الرجل، قبل أن يسقط الأخير وهو يشهق، ساحبًا الهواء إلى رئتيه، وخدوش حمراء تقاطعت على رقبته، جذبها حازم ليبعدها عنه، قبل أن يعود إليه وهو ما يزال ملقىً على الأرض، لينهضه ثم ينتظر حتى يهدأ ويستعيد وعيه.

- أنا آسف جدًا على اللي حصل.

فيرد الرجل بغضب متحشرج، وعيناه لا تفارقان فريدة، التي وقفت ترمقه بنظرة نارية:

- دي مجنونة، دي لا يمكن تكون إنسانة طبيعية.

- مفيش داعي للغلط، وأنا بكرّر أسفي تاني مرة.

ثم استطرد محدثًا فريدة:

- كفاية بقى، اتفضلي لو سمحتي.

جذبها بغلظة، مغادرًا المطعم، ونظرات الروّاد تطوّقهما من كل صوب، بينما قام هاني بسداد حساب المطعم واصطحب زوجته ليلحقا بهما.

***

في طريق العودة، ساد صمتٌ مطبق على الجميع، وبالأخص حازم، رغم محاولات هاني الحثيثة لانتزاع الكلام من فمه وإخراجه من حالة الغضب التي انطبعت على طريقة قيادته، هو يقبض على المقود بحدّة وغضب، لا يرمش له جفن، وكأن على رأسه الطير، بينما يجلس هاني بجانبه يطرق أبواب النقاش في عدة مواضيع مختلفة، ولكن دون مجيب، حتى أصابه اليأس في النهاية ليستسلم هو أيضًا للصمت، بينما تجلس إيريني بالمقعد الخلفي في حزن نابع من شعور غير مباشر بالذنب لما حدث، وأن لها يدًا بطريقة أو بأخرى في تعكير صفو يومهم، تنقل بصرها كبندول الساعة بين حازم وفريدة، الجالسة بجوارها، تلصق رأسها بزجاج النافذة في شرود، يصلون إلى منزل فريدة لتودعهم بفتور، قبل أن ينطلقوا مرةً أخرى.

يقف بسيارته أمام منزل هاني ليقول الأخير:

- اتفضل معانا يا حازم.

- ربنا يخليك يا هاني، خليها مرة تانية.

- مش هاينفع تبقى تحت البيت و...

- معلش يا هاني، خليها مرة تانية.

- طيب رايح فين دلوقتي؟

- مش عارف لسه.

يلتفت إلى زوجته قائلًا:

- طب اطلعي إنتِ يا إيريني، أنا سهران مع حازم شوية.

فتودّعهم وتغادر السيارة، قبل أن ينطلق حازم مرةً أخرى.

كانت تسيطر على حازم حالة من التشتت، وإحساس بالعجز وقلّة الحيلة، لا يدري ماذا يفعل تجاه فريدة، يسترجع كيف بدأ كل هذا، يغمض عينيه متمنيًا أن يكون كل ما يحدث ليس إلا مجرد كابوس، وسرعان ما سيستفيق منه، يقود بلا وجهة أو هدف، حتى يصل إلى كورنيش النيل بالزمالك، فينحرف يمينًا ثم يضغط مكابح السيارة لتصدر صرخة، قبل أن تتوقف بقوة، يكاد معها رأس هاني أن يصطدم بالزجاج، يمد يده ليخرج أسطوانة فيقذف بها داخل مشغّل الأسطوانات، لتنطلق موسيقى (Yiruma) الساحرة، التي لو سمعها بيتهوفن لنهشت الغيرة قلبه، ظل في صمته بضع دقائق قبل أن يقول:

- أنا مش عارف أعمل إيه؟

فينظر إليه هاني في شفقة:

- ارمي حمولك على الله وقول يا رب.

يزفر بتنهيدة حارّة من قلبه:

- يا رب.

قبل أن يستطرد:

- أنا مش عارف فريدة مالها يا هاني، روحنا جلسات كتيرة للدكتور، ومشينا على الأدوية اللي كتبها، واستقرت حالتها فترة، وقلنا خلاص المشكلة اتحلّت، واتفقنا على معاد الجواز، وظبطت تقريبًا كل حاجة، ويوميًا بننزل نلف على المحلات، وبحاول أخرجها من اللي هي فيه، لكن واضح إن مفيش فايدة، عدوانيتها كل ما بتزيد.

- إنت مكبّر الموضوع ليه بس يا حازم؟ هو إيه اللي حصل؟

- إيه اللي حصل؟! هو إنت ما شفتش هي عملت إيه النهارده؟ ما شفتش نظرات الناس لينا كانت عاملة إزاي؟ اللي يشوف اللي حصل هيقول عليها مجنونة.

- عادي جدًا يا حازم، لكل فعل رد فعل و...

يقاطعه في انفعال شديد:

- مساوٍ ليه في المقدار يا هاني، مساوٍ ليه في المقدار، لكن رد فعلها النهارده مكنش ليه علاقة بالفعل نفسه، أنا مش عارف هي جابت القوّة دي منين؟! أنا خلّصت الراجل من إيديها بالعافية، أنا مش هبالغ لو قلت إني بقيت بخاف منها.

- مش للدرجة دي يعني، هو صحيح أنا كنت متغاظ قوي من الراجل ده، بس بعد اللي عملته فريدة فيه، بقيت متنّح لدرجة إنه

صعب عليّ.

يتردّد صدى موسيقى من مكان ما، فينظر حازم إلى هاني قائلًا:

- دي ساقية الصاوي فيها حفلة النهارده، ما تيجي ندخل؟

- ندخل إيه يا عم؟ أنا ماليش في الحفلات.

يبادره حازم بتوسّل:

- تعالى بس، هنقعد ربع ساعة ونمشي، يا أخي محتاج أروح مكان فيه ناس وزحمة.

يرضخ هاني أمام إصراره، ليغادرا السيارة مشيًا على الأقدام حتى يصلا إلى ساقية الصاوي، فيقف حازم أمام شباك التذاكر ليشتري تذكرتين، في حين يستوقف هاني أحد باعة الجرائد ليبتاع جريدة صباح اليوم التالي.

***

رغم الحدود، رغم السدود

رغم اللي راح واللي عدى من عهود

رغم الجراح، رغم الآلام

رغم إن جوّه القلب فيه زحمة كلام

رغم اللي قال، واللي فاكر إنه ممكن يخنق العقل بقيود

رغم السؤال اللي مالوش ردود

أنا موجود... أنا موجود

لسه قادر ع الصمود

يستند حازم بظهره على سور شاطئ النيل، يستمع للأغنية في نشوة، وعيناه تتابعان الشباب وقد تجمعوا بحشود في تراقص وتمايل مع أنغام الفريق، الذي اشتعل حماسًا، فبات يعيد على مسامعهم المقاطع المفضّلة لديهم، وقائد الفريق الذي انغمس في الغناء، وهو يعصر الميكروفون بقبضته، مغمض العينين، منتشيًا في نشوة وحبور.

أنا اللي غيّرت اللي كان

واللي جاي راح أغيّره

طعم الكرامة لسه ع اللسان

والظلم لو ناسي أفكّره

إيه اللي أكبر من حدودك

لسه قادر أكسر قيودك

أنا صوتي أقوى من بارودك

ينظر إلى هاني الذي استغرق في مطالعة إحدى صفحات الجريدة عن خبر بعنوان (خطة الحكومة للقضاء على العشوائيات نهائيًا)، فيوكزه مازحًا:

- يا ابني اسمع الكلام المفيد وسيبك من كلام الجرايد ده.

- يا عم اسمع إنت، إنت مش كنت مكتئب من شوية وعايز تنتحر؟

ثم يستطرد:

- لعلمك فرق الأندر جراوند دي هي اللي بوّظت عقول الشباب، بيدوهم مسكّنات على هيئة أغانٍ.

يضحك حازم قائلًا:

- أولًا اسمها فرق الأندر جراوند مش الباك جراوند يا مقطّف، ثانيًا اللي بيدي مسكّنات على هيئة أغانٍ أحسن من اللي بيدوا سرطانات على هيئة أدوية.

قالها، ثم انتزع منه الجريدة ليلقيها في النيل، وأخرج هاتفه ليتصل بفريدة، وصدى صوتٍ يتردّد:

أنا موجود... أنا موجود

صوتي أقوى من البارووود

***

يصل حازم إلى منزله بعد يوم عصيب، ليخلع ساعته ويلقي بها مع مفاتيحه على الأريكة، يقبض على ريموت جهاز المسرح المنزلي قبل أن يضغط على أحد أزراره فيضيء، يعلو صوت سيناترا الرخيم بأغنيته الشهيرة (All The Way)، يخرج هاتفه ليتصل بفريدة عدة مرات، لكنها لا تجيب، يتجرّد من ملابسه ثم يدخل ليستحم، يقف تحت المياه مغمضًا عينيه، مستندًا بيديه إلى الحائط، والماء البارد ينساب على رأسه ليتسلّل تدريجيًا إلى باقي أجزاء جسده، يسترجع أحداث اليوم كنيغاتيف لفيلم كاميرا قديم، يظل في وضعه هذا لعدة دقائق، إلى أن يقطع رنين هاتفه شريط أفكاره، ينتزع روب

الاستحمام ويرتديه، ويخرج مسرعًا ليلتقط هاتفه مجيبًا:

- أيوه يا مريم، إزيك عاملة إيه؟ وماما عاملة إيه؟

- الحمد لله، إنت عامل إيه يا حازم؟

- تمام الحمد لله.

- إيه اللي حصل النهارده؟

- فريدة حكيتلك؟

- ما كنتش سألتك، هي من ساعة ما جات وهي مش طبيعية، ودخلت أوضتها وقفلت عليها بابها، ومن ساعتها ما خرجتش ولا اتكلمت مع حد، حتى ماما حاولت تكلمها كذا مرة، لكن قالت إنها تعبانة شوية وعايزة تنام.

- مش عارف أقولك إيه يا مريم، بس النهارده حصل موقف كده رجّع لي القلق مرة تانية.

أخبرها بما حدث في المطعم، وهي تستمع إليه في ذهول ودهشة، لا تدري ماذا تقول.

- وبعدين؟

- بس، حاولت أكلمها أكتر من مرة، بس هي ما بتردش.

- أكيد اتضايقت من الموقف ومن إحراجها قدّام الناس.

- أيوه يا مريم، بس أنا ذنبي إيه؟ عملت كده غصب عني.

- معلش يا حازم، واحدة واحدة عليها، إحنا ما صدّقنا حالتها

بدأت تستقر، المهم دلوقتي ما تسيبهاش تنام زعلانة، حاول تكلمها ضروري.

- أنا كنت ناوي أعمل كده والله، عمومًا بعد ما أقفل معاكي هاتصل بيها تاني، بس يا رب ترد.

- أوكي، وما تضايقش نفسك، يلا تصبح على خير.

- وإنتِ من أهله.

ينهي المكالمة ليعاود الاتصال بفريدة عدة مرات أخرى، إلى أن أجابته أخيرًا ببرود، وهي تداعب قطتها:

- أيوه.

- إزيك يا فريدة؟ عاملة إيه دلوقتي؟

- عاملة إيه دلوقتي؟! ليه هو أنا كنت تعبانة ولا حاجة؟

- لا أبدًا، بس كنت عايز أطمن عليكي بعد اللي حصل النهارده.

- أنا كويسة، وعمومًا ما دام أنا بعملك فضايح كده ما تبقاش تخرج معايا تاني.

- فضايح! هو أنا علشان خايف على شكلك قدام الناس أبقى غلطان؟

- أهو اللي حصل بقى.

- عمومًا يا ستي أنا بعتذرلك إن كنت انفعلت عليكي أو عليّت صوتي.

يسمع طرقًا بباب غرفتها، ثم حوارًا يدور بينها وبين أختها:

- أيوه يا مريم.

- معلش يا فريدة، كنت عايزة أستخدم الكمبيوتر بتاعك علشان جهازي عطّلان.

- اتفضّلي.

تقولها، ثم تعاود استكمال حوارها مع حازم:

- حصل خير، المهم ما تنساش تكلم النجار علشان تستعجله.

- حاضر من عيني، إنتِ تؤمري.

- معلش هاقفل علشان تعبانة وعايزة أنام.

- ماشي يا حبيبتي، تصبحي على خير، وما تنسيش تكلميني أول ما تصحي.

***

الثالثةُ والنصفُ صباحًا..

تغط والدةُ فريدة في نومٍ عميق، بينما تزداد عيناها اضطرابًا أسفل جفنيها المغلَقين، كجنينٍ يقاتل للخروج من رحم أمّه، يتلاحق نَفَسُها وتتَصبب عرقًا، وتتقلّص ملامحها في ارتعاشةٍ خفيفةٍ تكاد لا تُلحَظ.

ترى فريدة وهي تهوي في بئرٍ سحيق، تصرخ ولكن يأبى صوتُها أن يغادر حلقها، كأن حبالها الصوتية شُلّت رعبًا، يبتلعها الظلام وتتلاشى تدريجيًا، تمد ذراعها إلى أعلى طلبًا للعون، فتلتقطها يدُ أمّها لتنتشلها

إلى الخارج مرّةً أخرى.

تتضح معالم الوجه تدريجيًا أسفل الماء، ملامح تخرج من العتمة قطرةً قطرة، ولكن.. ذلك ليس وجهَ ابنتها التي تعرف، بل وجهٌ لا يمت لابنتها بصلة، وجهٌ مريعٌ لامرأةٍ ذات ملامح جامدة، تجلّت في عينين ضيّقتين يعلوهما حاجبان مستقيمان، وعظام فك بارزة بدقّةٍ وقوّة، تشي بصرامةٍ قاسية لا تعرف الرحمة، تنظر إليها بثباتٍ مريب وقسوةٍ صامتة.

تصرخ في فزعٍ وهي تحاول إفلات يدها، فتتشبث المرأة بها بقوّةٍ أشدّ، قبل أن تفتح فمها ليخرج منه ثعبانٌ أسود ضخم يطوّق رقبتها، يلتف حولها كحبلِ مشنقةٍ حي، مُصدِرًا صوتَ تهشّمِ عظامٍ مكتوم، ممزوجًا بفحيحٍ شيطاني يتسلّل إلى أعماق الروح.

تفيق من نومها مذعورة، لتفاجأ بفريدة تقف على رأسها، تحمل بيدٍ شمعةً مضيئة، يتراقص لهبها على ملامح وجهها، وتُخفي باليد الأخرى خلف ظهرها، شيئًا لا يتّضح، وهي تنظر إليها نظرةً مرعبةً جامدة، فتنتفض من مضجعها صارخةً في فزع:

- في إيه؟

فتهرع فريدة لتغادر الغرفة مسرعة، تجر خلفها صمتًا أثقل من الكلمات.

***

في اليوم التالي...

ينهي حازم أعماله ثم يغادر الشركة، وقلقٌ خفي يرافق خطواته،

ليصل إلى منزل فريدة مطمئنًا عليها بعد موقف الأمس، لكنّه تلك المرّة لا يجدها بانتظاره، لتخبره أمّها أنّها خرجت بصحبة صديقتها "ملك" لشراء بعض الأشياء.

- غريبة.. ما قالتليش إنّها خارجة، ولا حتى كلّمتني، رغم إنّي مؤكّد عليها تكلّمني أوّل ما تصحى.

يلاحظ عليها الشرود والحزن، ونبرة صوتٍ مثقلة بالخوف، فيستفسر، فتخبره بما حدث في الليلة السابقة.

يتغيّر حال حازم، ويغمره التيه، ولا يعقّب، فكلّما اتّسعت الدهشة ضاقت العبارة.

تمر دقائق قبل أن يجمع شتات أفكاره، محدثًا نفسه:

- واضح إن حالتها كل ما له بتسوء... طب إنتِ ما حاولتيش تكلّميها تشوفي كانت عايزة منك إيه؟

تطأطئ رأسها وهي تقول بصوتٍ منكسر:

- دخلت عليها أوضتها، لقيتها نامت... أنا مش عارفة آخِرة اللي هي فيه ده إيه؟

فيبادرها قائلًا محاولًا التماسك:

- خير إن شاء الله... ما أعتقدش هيحصل أكتر من اللي حصل.

- لأ... هيحصل.

جاء الصوت من خلفه.

يلتفت ليجد مريم واقفة، تحدّق إليه بثباتٍ غير معتاد، فيستفهمها عمّا دفعها لقول ذلك، فتجيبه قائلة:

- تعالوا معايا.

قالتها وانصرفت دون انتظار ردّ، ليتبادلا نظرات الدهشة والحيرة قبل أن يلحقا بها.

تدخل مريم حجرتها، لتجلس على مكتبها أمام جهاز الكمبيوتر الخاص بها، تتحرّك بقلقٍ ظاهر، وتدس أسطوانة داخل مشغّل الأقراص وهي تقول:

- بعد الموقف اللي حصل لها امبارح في المطعم، قرّرت إنّي أراقبها من بعيد لبعيد... خايفة تأذي نفسها. دخلت وانت بتكلّمها يا حازم امبارح، وشغّلت كاميرا الويب بتاعتها قبل ما أنام من غير ما تحس، وسيبتها تسجّل كل تحرّكاتها. أنا عارفة إن ده مش حاجة كويسة، بس أحيانًا الظروف بتضطرّنا نعمل حاجات عكس مبادئنا.

تنهي جملتها، ثم تمسك بالفأرة وتضغط على أحد الملفات لعرض مقطعٍ مصوّر.

في البداية تبدو الشاشة مظلمة، لكن مع قليلٍ من التدقيق، تظهر عينان مضيئتان تحدّقان في الكاميرا بثقةٍ وثباتٍ مقلقين.

يقترب حازم بوجهه من الشاشة أكثر ليتحقّق ممّا يرى، فيلاحظ حدقتي العينين تتسعان أكثر فأكثر، كأنّهما تبتلعان الضوء.

يفغر فاه في وجومٍ مقطوع الأنفاس، يكاد يسمع صوت دقّات قلبه وهي تتسارع بعنف.

وفجأة..

تُضاء الشاشة كاشفةً عن حجرة فريدة، ليتّضح أن تلك العينين لـ"بيكي"، قطّتها.

فيسترد حازم أنفاسه كغريقٍ عادت إليه الحياة بعد لحظة اختناق.

تدخل فريدة في الكادر، تتمايل بخفّةٍ غريبة، وتتراقص قبل أن تلقي بجسدها على الفراش.

تهرع بيكي إليها، فتنظر لها فريدة بابتسامةٍ هادئة، تمتزج فيها البراءة بشيءٍ غير مفهوم، وتمسّد ظهرها بأناملها الرقيقة.

يندمجان في اللعب سويًا، تدغدغها فريدة في رقبتها، فتقبض بيكي على ذراعها بكفّيها الصغيرتين وتحاول قضمها.

تعلو ضحكات فريدة في دلالٍ طفولي مصطنع.

تحملها ثم تلقي بها إلى أعلى، فتتسع عينا القطّة وينكمش جسدها خوفًا، قبل أن تلتقطها مرّةً أخرى.

تعاود الكرّة مرارًا وتكرارًا.

تقذفها إلى أعلى ثم تلتقطها...

تقذفها ثم تلتقطها...

تقذفها ثم...

تفلتها.

تسقط بيكي أرضًا.

يتصلّب جسدها، تجحظ عيناها، وتنتفخ أوداجها.

تزدرد فريدة ريقها وهي تنظر بفمٍ مرتعش إلى قطّتها، ثم تشير لها لتقترب، لكن تلك المرّة لا تستجيب بيكي.

يتحوّل التردّد إلى غضبٍ مكتوم.

تزحف يدها على الفراش ببطءٍ مريب، تدسّها أسفل الوسادة، وتُخرج سكينًا ذا نصلٍ حادّ.

تنقض عليها، تقبض على رقبتها، وقد عادت ارتعاشة عينها اليمنى من جديد، ثم تذبحها، لتفصل الرأس عن الجسد دون أدنى تردّد أو شفقة، وتلقي بهما على أرض الحجرة في لا مبالاةٍ صادمة.

عند تلك اللقطة تسقط أمّها مغشيًا عليها، فتهرع مريم لإنقاذها، بينما يظل حازم محدّقًا إلى شاشة الكمبيوتر كالمسحور، غير مدركٍ لما يحدث حوله، ليواصل متابعة المقطع المصوّر.

تفيض روح القطّة وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة، قبل أن يهدأ جسدها وتسكن ارتعاشته.

تخرج فريدة كيسًا من درج مكتبها، تضع فيه جسد القطّة ورأسها، ثم تلقيه من النافذة بعد أن تُحكِم ربطه بإتقانٍ بارد، وتشرع في إزالة آثار الدماء.

تعود وتجلس في هدوءٍ تامّ، كأن شيئًا لم يكن، وتبدأ في الغناء بصوتٍ خفيض لبضع دقائق.

ثم تتجه إلى مكتبها مرّةً أخرى، تُخرج شمعةً وتُشعلها، تحملها

وتغادر الغرفة، بينما تقبض بيدها الأخرى على السكين، تُخفيه خلف ظهرها بحركةٍ مدروسة، لتغيب عدّة دقائق تمر على حازم كالدهر.

وفجأة...

تعود مهرولة لتظهر على الشاشة من جديد، تلقي بالسكين والشمعة من النافذة، ثم تنسل إلى الفراش أسفل الغطاء، ليختفي جسدها بالكامل، كجثمانٍ تم تكفينه بعناية.

يظل حازم في حالة ترقّب وذعر، لا يدري ماذا يقول أو ماذا يفعل.

يصاب بالخرس التام.

ماذا يحدث حوله؟

وكيف حدث؟

وماذا كانت تنوي فعله بالسكين عندما غادرت حجرتها وذهبت إلى حجرة أمّها؟

ماذا لو لم تستيقظ والدتها في الوقت المناسب؟

ماذا يسيطر على عقل فريدة؟

أو - بمعنى أدق -

مَن؟

***

اليوم التالي..

يجلس حازم وهاني بالشركة، وقد قص عليه ما حدث بالأمس، وما

شاهده في الفيديو المصوّر لفريدة.

ظل هاني صامتًا لبضع دقائق، وقد ارتسمت على وجهه ملامح البُهت والذهول، حتى ظن حازم أنّه قد توفّي.

ثمّ، ومن دون سابق إنذار، قال:

- البنت دي ملبوسة يا حازم.

- جن لما يلبسك! إنت إزّاي مثقّف وبتقرا، وبتصدّق في الكلام الفارغ ده؟

- ده مش كلام فارغ يا حازم، الجن والسحر مذكورين في القرآن، والرسول نفسه اتسحر قبل كده.

وزن حازم ردّه، وقد أصابه الكلام في مقتل.

- طب... تعرف حد يفهم في المواضيع دي؟

بعد تفكيرٍ قصير قال هاني:

- آه، عم مصطفى الساعي... بنته كانت عندها مشكلة من النوع ده، وراح لمعالج روحاني وعالجها بالقرآن.

- طب ابعت انده له.

- هو مجاش النهارده.

- طب هات رقمه.

- ما عندوش تليفون.

- طب هات عنوانه، وما تقوليش ما عندوش بيت.

قطّب هاني حاجبيه، مسندًا ذقنه إلى يده، واستغرق في تفكيرٍ عميق، كمن يبحث عن حل لأزمة الشرق الأوسط.

- ثواني أجيب لك العنوان من الإدارة.

قالها وغادر المكتب، بينما قام حازم بإخراج هاتفه ليخبر والدة فريدة بمقترح صديقه.

قابلت فكرته بالرفض في البداية، لكنّها لم تجد بدًّا من الموافقة في النهاية أمام إصراره.

- يعني الراجل ده كويس؟

- والله يا ماما أنا ما أعرفوش، بس أعرف واحد معانا في الشغل عالج بنته عنده قبل كده.

- طيب يا حازم، بس أنا مش هاقدر أجي معاكم، لظروفي الصحيّة اللي إنت عارفها، غير إنّي مستحيل أشوف بنتي في الموقف ده.

- خلاص تمام، أنا هاخد فريدة، ونعدّي على زميلي ده ونعرف منه إزّاي نوصل للمعالج ده.

- ماشي، ربنا يعمل اللي فيه الخير.

- حصل حاجة امبارح بعد ما مشيت؟ ما سألتش عن بيكي؟

- زي ما شفت كده، رجعت من برّه طبيعي جدًّا، كأن مفيش حاجة حصلت، وبعد ما إنت نزلت سألتني عنها، فقلت لها زي ما اتفقنا إنّها خرجت تلعب برّه على السلم، وبعدين اتعشّت ودخلت تنام.

(تقصد فريدة بالطبع).

ثم استطردت قائلةً بقلق:

- بس إحنا هنفضل مخبّيين عليها الموضوع ده، وخايفين نواجهها... لحد إمتى؟

- مؤقّتًا بس، لحد ما نفهم إيه اللي بيحصل. المهم دلوقتي بلّغيها إنّي هعدّي عليها الساعة خمسة، ولما أجي هحاول أقنعها بموضوع المعالج الروحاني ده.

***

علّمني حبّكِ، سيّدتي، أسوأ العادات...

علّمني أن أفتح فنجاني في الليلة ألف مرّة،

وأجرّب طب العطّارين، وأطرق باب العرّافات.

نزار قبّاني

***

في أحد أزقّة منطقة السيّدة زينب، تدخل سيّارة حازم، تجر وراءها قطيعًا من الأطفال، في ملحمةٍ تضاهي ملحمة جلجامش، حتى تتوقّف أمام أحد البيوت المتهالكة.

كان لا يزال غير مصدّقٍ أنّه نجح في إقناع فريدة بالموافقة على الذهاب إلى شيخٍ يعالج بالقرآن؛ فقد بدا الأمر شبه مستحيل، لكن محاولاته تُوّجت بانتصارٍ أخير، مع قليلٍ من مساعدة والدتها.

يترجّل من سيّارته، مُخرجًا قصاصةً ورقيّة، ينظر إليها قبل أن يرفع رأسه مناديًا بأعلى صوته:

- عم مصطفى... عم مصطفى!

يخرج عم مصطفى من إحدى النوافذ، شبهَ عارٍ، لا يرتدي سوى ملابس داخليّة بيضاء، ليفاجأ بحازم، فيُصاب بالهلع.

يختفي لثوانٍ، ثم يخرج مسرعًا متسائلًا وهو يصافح حازم بدهشة:

- باشمهندس حازم! خير؟ رفدوني؟

- لا يا عم مصطفى، ما ترفدتش ولا حاجة، أنا بس جاي لك في موضوع كده... اطلع البس حاجة وتعالى معايا.

- خير يا باشمهندس؟ قلّقتني!

- أنا كنت سمعت إن بنتك كانت تعبانة شوية، وإنت ودّيتها لواحد عالجها.

يتنهّد في حزن:

- آه... كانت أيّام، ربنا لا يرجّعها. كانت بتكلّم نفسها، وتفضّل - لامؤاخذة - تتكرع في وشنا وهي بتضحك، ده غير الأمبليهات اللي عفتنا بيها، ولما كانت...

باشمئزازٍ واضح:

- ما علينا يا عم مصطفى... هي عاملة إيه دلوقتي؟

- لا، بقت زي الفل الحمد لله، الشيخ طه ده ربنا يكرمه.

- طب أنا جاي لك علشان توديني له.

- عيني يا باشمهندس... بس خير إن شاء الله؟

- خطيبتي بيجيلها شوية كوابيس، وكنت عاوز حد أستشيره.

يقطّب جبينه وهو يستمع بشفقة، ثم يقول:

- لا، خير إن شاء الله... اتفضلوا يا باشمهندس، اشربوا حاجة على ما ألبس.

- معلش يا عم مصطفى، أصل...

- علي الطلاق ما ينفع! دي أم زكريا تزعل.

- أم زكريا مين؟

- المدام... ولا أخليها تنزل للست هانم بنفسها؟

يعاجله حازم:

- لا... لا... خلاص، إحنا طالعين.

ثم يلتفت إلى فريدة:

- معلش يا حبيبتي، مضطرّين نطلع خمس دقايق وبعدين نروح مشوارنا.

- يا حازم، يلا علشان ما نتأخّرش، إحنا مش جايين نتضايف.

- يا حبيبتي، ما هو لو ما طلعناش هي هتنزل، وإنتِ شايفة جوزها

نازل لابس إيه... هتبقى فضيحة لو نزلت.

تستجيب فريدة على مضض، ليصعدا سويًا على درجات سلّمٍ متهالك، لا يسمح عرضُه بمرور أكثر من شخصٍ واحد، حتى يصلا إلى شقّة مصطفى.

تستقبلهما امرأة مربعة القوام، يزيد وزنها على مائةٍ وخمسين كيلوغرامًا، ومن المؤكّد أنّها لا تغادر شقّتها، فمن المستحيل أن يسمح عرض الدرج بمرور تلك الشاحنة البشريّة.

- يا أهلًا، يا أهلًا وسهلًا... منوّر يا باشمهندز إنت والست هانم، اتفضّلوا... يا ألف مرحب، ده إحنا زارنا النبي!

تصافح حازم، ثم تنقض كالشاحنة لتحتضن فريدة بعدّة قبلات، فيجذبها مصطفى من ذراعها، خشية أن تُصيبها بارتجاجٍ في المخ، قائلًا:

- أنا هادخل ألبس يا باشمهندس وأجيلك، اعتبر نفسك في بيتك.

- خش إنت يا أبو زكريا غيّر، وأنا هاروح أعمل لهم حاجة يشربوها.

يحاول حازم إخبارها أنّه لا داعي لذلك، لكنّها تنصرف.

يظهر طفل، هو إلى الشيطان أقرب، يقف منكوش الشعر، ينهمر المخاط من أنفه، لا يرتدي أي ملابس، كنهجِ آلِ هذا البيت.

ينظر إليهما في مقتٍ وتشزّد، متظاهرًا بأنّه عبده موته الثاني عشر.

تداعبه فريدة بإشارةٍ من يدها، فيبصق عليها صارخًا بصوتٍ غليظ:

- عايزة إيه؟

تعود أمّه حاملةً صينيّة أكوابٍ متّسخة، مملوءة بشيءٍ ما، فتركله بقدمها ركلةً تُطيح به بعيدًا.

- معلش يا ست هانم، ما تزعلِيش... ده واد ابن كلب، الرباية لما عدّت عليه خدته غياب.

تضحك وحدها، ثم تلاحظ نظرات فريدة المشمئزّة تجاه الأكواب:

- الكركديه مش عاجبك، صح؟ كله بيتغش دلوقتي... الناس بقت بنت كلب أوي يا ست هانم.

قالتها وهي تُصر على إقحام حرف الـ(ش) في جملة "بنت كلب"، فيرد حازم:

- هم ولاد كلب من زمان، بس إنتِ ما كنتيش واخدة بالك.

يكتفي بذلك، ثم يهب واقفًا، ويجذب فريدة من ذراعها مغادرًا.

- مستعجلين ليه يا حازم بيه؟ ده إنتوا منوّرنا والنبي!

- معلش مرّة تانية، بلّغي عم مصطفى إنّنا مستنيينه تحت.

يقولها مسرع الخطى، كمن يفر من الجحيم.

- يوه! طب والكركديه؟

***

يجلس ثلاثتهم في صالة منزل الشيخ طه، في انتظار عودته من صلاة العشاء. منزل متواضع، هادئ ومريح للنفس، أثاثه بسيط، تفوح منه رائحة النظافة، وعبق البخور الذكي بين أرجائه يختلط مع صوت الشيخ رفعت وهو يصدح من مكان ما، وآيات القرآن والذكر تكسو الجدران في تناسق يذكّرك بطقوس يوم الجمعة المباركة.

تدخل سيدة تنتقب بالسواد، تحمل صينية عليها أكواب من الشاي، يبدو أنها زوجته.

- أهلًا وسهلًا.

يرد مصطفى دون أن يرفع بصره إليها:

- أهلًا بحضرتك، وآسفين لو كنا جينا من غير ميعاد.

- ميعاد! ميعاد إيه يا عم مصطفى؟ إنت أكتر واحد عارف إن الشيخ طه فاتح بيته للناس كلها في أي وقت، اتفضلوا...

تضع الصينية ثم تنصرف بهدوء.

ينظر حازم إلى مصطفى قبل أن يهمس قائلًا:

- هو الشيخ طه ده بياخد كام؟

ينفعل مصطفى قائلًا:

- ياخد كام إيه يا باشمهندس! اوعى تجيبله سيرة الفلوس، ده راجل تقي وبتاع ربنا، بيعمل ده لوجه الله تعالى وبدون مقابل.

يُقطع حديثه بصوت إيصاد باب المنزل.

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

قالها رجل يبدو في أواخر الأربعينيات، مشرق الوجه، ذو لحية متوسطة الطول، وهو يُقبِل عليهم بالسلام.

ينهض حازم من مجلسه، بينما يهجم مصطفى على الشيخ فارجًا ذراعيه في سعادة، وبعد أن احتضنا بعضهما وقبلا الأكتاف، قال:

- وعليكم السلام شيخ طه، إزاي أحوالك؟

- الحمد لله رب العالمين.

يقولها وهو ينظر لحازم مصافحًا، قبل أن يومئ برأسه صوب فريدة مرحبًا بها، فتبادله الترحيب بإيماءة مماثلة.

يجلس طه دون أن تفارقه الابتسامة:

- أهلًا وسهلًا، خيرًا إن شاء الله؟

يرد عليه مصطفى مشيرًا إلى حازم:

- الباشمهندس حازم يا شيخنا، مديري في الشغل وشخصية محترمة ما تتخيرش عنك، كان محتاج مشورتك في حاجة كده.

- منوّر يا باشمهندس، خيرًا إن شاء الله.

ينظر إلى مصطفى مستطردًا:

- طب هنستأذنك يا عم مصطفى، اعتبر البيت بيتك، احنا هندخل جوه شوية وخليك أنت هنا براحتك.

- لا، أنا هستأذن علشان ورايا مشوار وأسيبكم براحتكم، ولو عوزت

أي حاجة يا باشمهندس كلمني.

ينهض واقفًا، مغادرًا المجلس، فيدعو طه حازم وفريدة ليتبعاه:

- اتفضلوا معايا.

ينهض متجهًا إلى غرفة جانبية ليدلفا خلفه، قبل أن يغلق بابها.

يلاحظ الارتباك على فريدة فيجلس قائلًا وهو ينظر لحازم:

- اتفضل يا باشمهندس، كلي آذان مصغية.

- فريدة خطيبتي يا شيخ طه، حصلتلها حادثة من فترة كده، ومن ساعتها...

صمت برهة، بحثًا عن التعبير المناسب، قبل أن يستطرد:

- يعني تركيزها قل شوية، وبقت بتسرح كتير وتنسى أكتر، و...

- بحلم بكوابيس.

قالتها فريدة مقاطعة، لينكمش ما بين حاجبي حازم، معربًا عن دهشته:

- بس انتي ما قولتليش قبل كده موضوع الكوابيس ده؟

- يعني ماكنتش عايزة أقلقك.

يقاطع حديثهما قائلًا:

- خير إن شاء الله يا أخت فريدة، متفتكريش الكوابيس دي بتجيلك إمتى بالظبط؟ يعني أول ما تنامي بعد ما تنامي بفترة، قبل الفجر أو بعد الفجر؟

- مش هقدر أحدد بالظبط، لكن اللي متأكدة منه إنها بقت تجيلي يوميًا، وأحيانًا أفتكر تفاصيلها، وأحيانًا لأ.

يومئ برأسه متفهمًا:

- الله المستعان... وأخبار علاقتك بربنا إيه يا فريدة؟

- قصدك الصلاة؟ الحقيقة مش منتظمة فيها الفترة الأخيرة.

- ليه؟ يعني لما بتنوي تقومي تتوضي وتصلي حاجة تمنعك؟ ولا بتنسي أساسًا انتي كنتي عايزة تعملي إيه؟ ولا مجرد تقصير؟

- لأ... ممكن يكون مجرد تقصير.

- طب والقرآن؟ بتقري قرآن ولا بردو مش منتظمة؟

- لأ... بقرأ أحيانًا.

- بتحسي بصداع أو وجع أو ضيق نفس وانتي بتقري القرآن؟

- لأ... خالص.

- طب فيه تجشؤ أو تثاؤب وانتي بتقري؟

- أحيانًا بتثاوب.

- لما تسمعي الأذان بتحسي بخوف أو رهبة؟

- متهيألي أي حد بيسمع الأذان بيحس برهبة، لكن مش خوف.

- في بقع في أي منطقة في جسمك ظهرت مؤخرًا؟

- لأ.

ظل ينظر إليها بثبات لبرهة، قبل أن ينهض ساحبًا مقعدًا خشبيًا ليضعه أمامها، استقر عليه وبدأ في إجراء عملية الرقية الشرعية.

استهل الرقية الشرعية بالحمد والثناء والدعاء بأسماء الله وصفاته، ثم الصلاة على النبي وآل بيته، قبل أن يشرع في قراءة الفاتحة. وكما أوضح، أن عملية الرقية الشرعية تعتمد على تلاوة بعض الآيات التي تحتوي على التوحيد والإخلاص لله سبحانه وتعالى، والترغيب برحمته، والترهيب من سخطه، مع التشديد على عدم الاعتقاد بهذه الآيات دون غيرها من القرآن، ويكون الأولى قراءتها مرتبة كما وردت في كتاب الله.

وبالفعل، تلا آياته، قرأ أذكاره، ابتهل بأدعيته، ترصّد أي اهتياج أو ثورة، ولكن خاب ظنه في النهاية، لم يحدث شيء يُذكر. ظلت فريدة في سكونها، لا تدري ماذا عليها أن تفعل أو تقول.

أخيرًا، أخبرهما أنه انتهى من الرقية، ولا داعي للقلق، ليغادرا في صمت بعد أن شكراه باقتضاب.

***

في طريق العودة، لم ينبس بحرف. أفعمت الحيرة رأسه، فارت بالأفكار والاستفهامات.

لم تكن طمأنة الشيخ طه تعني له سوى المزيد من الغموض والمعاناة، ازداد قطر دائرة مخاوفه طولًا، يأس من التوصل لِكُنْه ما يحدث.

إلا أنه تراءى له مفترق طرق يفصل بين أمرين: أولهما أن يمضي

في رحلة البحث عن سر ما يحدث، وثانيهما أن ينفض عن رأسه كل هذا ويبدأ حياةً جديدة طبيعية.

وكان أميل إلى الأخير، فقد اعتاد أن الحياة لا تبقى على وتيرة واحدة مهما طال الأمد. قطع نشيجها، تتابع أفكاره ليدهس بقوة دواسة المكابح، ويرصف سيارته بجوار عمود الإنارة، ملتفتًا إليها ليسألها عم يُبكيها.

أخرجت منديلًا لتزيل آثار البكاء، مُجيبة:

- مفيش حاجة، بس تعبت وزهقت من اللي أنا فيه، ما بقيتش قادرة أركز في حاجة لدرجة إن مديري في الشغل اداني أجازة مفتوحة، أو بمعنى أدق، اترفدت بشياكة... لأ وكمان اللي زاد وغطى إن (بيكي) تاهت ومش لقيناها، تقريبًا خرجت تلعب ومارجعتش، وماما ومريم ما حاولوش حتى يدوروا عليها معايا، ومعاملتهم اتغيرت معايا أوي، مش عارفة ليه؟

ثم انفجرت في البكاء مجددًا.

ربت على يدها بابتسامة إشفاق:

- معلش، هانت، وإن شاء الله كبوة وهاتعدّي.

هو يدرك كم هو مؤلم أن يبدو الإنسان ضعيفًا لا حيلة له، وخاصة أمام من يحب. بحث عن كلمات تهوّن عليها قليلًا، لولا أن قطع تفكيره رنين الهاتف ليخرجه من جيبه ويقرأ اسم سهام، فيتجاهلها كالمعتاد، ويلقي بالهاتف جانبًا، ثم يدير المحرك وينطلق مرة أُخرى.

***

في اليوم التالي..

مقهى بوسط البلد..

يجلس حازم مع هاني، ليخبره بما حدث مع الشيخ طه. يبادره الأخير قائلًا في شفقة، وهو يزفر دخان النرجيلة:

- الله يكون في عونها الصراحة، أصعب حاجة على الإنسان إنه يكون عنده مشكلة بس مش عارف يحط إيده عليها، زي ما يكون عندك مغص في دماغك، مانتش عارف تاخد حاجة للصداع ولا للإسهال؟

ينظر إليه حازم وقد استشاط غيظًا:

- تصدق فعلًا إنت عندك حق، أهو أنا دلوقتي حطيت إيدي على المشكلة اللي عندي من زمان، ومكنتش عارف لها سبب.

- إيه هي؟

- أنت... أنت المشكلة! يا أخي، أنا مش عارف أنا إيه اللي مصبرني عليك كل الفترة دي!

يقهقه هاني فينطلق الدخان من فمه، ويهتز كرشه فيبدو كسيارة احترق محركها، ثم يسعل وقد احمر وجهه. يُناوله حازم كوب الماء الموضوع على المنضدة أمامهما قائلًا:

- خد، إلهي تفطس يا شيخ، جاي أقوله أنا زهقت من اللف والدوران وجبت آخري يقوللي صداع وإسهال، يا أخي نفسي آخد منك جملة مفيدة.

هدأ هاني، وسيطر على نوبة الضحك قبل أن يقول بجدية:

- أصل أنا فعلًا مش عارف أقولك إيه، يعني إنت ما تأخرتش في حاجة... مستشفيات وروحت، دكاترة ووديت، شيخ وجربت... مش ناقص غير إنك تعملها زار.

- طب وأنت رأيك إيه يا عبقري زمانك؟

- رأيي تفكر برة الصندوق.

قطب حاجبيه بجدية قائلًا:

- بمعنى؟!

سحب نفسًا أعمق قبل أن يشير بسبابته إلى شاشة التلفاز. نظر حازم ليرى إعلانًا يظهر صورة لرجل ينظر في ثبات وثقة، وقد كُتب بجانبه:

الدكتور سليمان حبيب، دبلوم الباراسيكولوجي من الكلية الملكية البريطانية، وعضو الاتحاد الأمريكي للفلكيين، علاج السحر، جلب الحبيب، فك الأعمال، كشف الماورائيات، قراءة الطالع.

انتهى حازم من قراءة الإعلان ليحدق إلى هاني في صمت.

***

الرابعة صباحًا...

تغط مريم في نومٍ عميق، وصوت عقارب ساعة الحائط الرتيب يمزق السكون. تشع ومضة في وجهها لتفتح عينيها، وهي تقاوم النوم في صعوبة، وجفنيها يزنا أطنانًا، تزدرد ريقها، تتعوّذ ثم تعود

لتغرق في النوم مرة أخرى.

قبل أن تسمع وقع أقدام، فتستفيق تلك المرة من شباتها لترى الغرفة سابحة في ظلام حالك. تبحث عن مصدر الصوت، فتجد شعاعًا متراقصًا يتسلل من فراغ أسفل باب حجرتها. تنتفض في فزع، تتحسس طريقها، تزحف يدها على الحائط ببطء، وهي ترتعش، حتى تصل إلى أحد أزرار الكهرباء لتضغط عليه، ولكن دون جدوى. تعيد الكرة عدة مرات، إلا أن المصباح يأبى أن يستجيب.

تلمح ظلالًا متحركة من أسفل الباب تقترب وتتضخم تدريجيًا، ثم يفتح الباب لترى سيلويت لامرأة تملأ فتحة الباب، تحمل شمعة ينعكس وهجها على الوجه فتبدو كشبح، وقد التمعت مقلتاها.

هنا تطلق مريم صرخة مدوية، وقد جحظت عيناها حتى كادتا أن تغادرا محجريهما، فتهجم عليها تلك المرأة، يصيب مريم الشلل التام، لا تملك سوى أن تدفن وجهها بين كفيها في رعب، وتنتظر قدرها.

ثم:

- مريم، حبيبتي، متخافيش... أنا ماما.

ترفع رأسها تدريجيًا لتبصر أمها أمامها، تتمالك أعصابها قبل أن تقول وهي تبكي:

- فزعتيني.

- أنا آسفة يا حبيبتي، بس النور قطع وكنت جاية أتطمن عليكي.

تزدرد ريقها وقد استعادت توازنها:

- أنا كويسة الحمد لله.

تنطلق صرخة أخرى ترج أرجاء المنزل، لتقفز الأم مسرعة تجاه غرفة فريدة، ممسكة بالشمعة، تدفع الباب فيرتطم بعنف بالحائط، لتجد ابنتها الأخرى منكمشة على سريرها في خوف.

تضع الشمعة على المكتب وتحتضنها بقوة لبث السكينة بقلبها، ولكن سرعان ما تتراخى يداها وهي تحدق بوجوم إلى حائط الغرفة، حيث كتب عليه:

MY SOUL, MY SOUL, SHALL SCREAM IN HELL

تتراجع ببطء شاخصة العينين لتستوعب ما يحدث، وهي تشعر بلزوجة في يدها، تبسط راحتها وقد خضبت بالحمرة من أثر... الدماء.

***

التاسعة صباحًا...

يقف حازم بغرفة فريدة وحيدًا، ينظر في جمود إلى الجدار بلامبالاة، وكأن الأمر لا يعنيه، يقرأ المكتوب للمرة الألف كطالب يتعلم القراءة في يومه الأول.

لم يكن وقع الجملة هو ما يثير دهشته، بل الطريقة التي خطت بها؛ لم يُستخدم قلم، ولا حتى آلة حادة... بل كتبت بالدماء، وبأقل ذكاء يمكننا أن نوقن بأنها دماء بشرية:

MY SOUL, MY SOUL, SHALL SCREAM IN HELL

- ما هذا! ومن المقصود بهذه الرسالة؟!

غادر الغرفة إلى صالة المنزل حيث تجلس الأم، تحتضن مريم التي دُمِّرت عينها من البكاء وانقطاع النوم، بجانب فريدة التي رفعت عيناها في وهن إلى حازم، وقد ضمدت رسغها برباط طبّي أبيض ضُبغ بالدماء، مستسلمة في شحوب، لا حول لها ولا قوة.

تنظر إليه نظرة توسل واستغاثة، ثم تستجمع قواها لتنهض متكئة بيدها الصحيحة على يد المقعد، تدنوا منه بانكسار، دون أن تنظر في عينيه، تدس يدها في جيبها، تخرج شيئًا ما، تناوله إياه، ثم تغادر إلى حجرتها وتوصد بابها بعنف.

يفتح حازم يده ليجد... دبلة.

***

مرت دقائق قبل أن ينتزع حازم بعض الحروف من فمه عنوة:

- إيه اللي حصل؟

ثوانٍ قبل أن تحرر الأم مريم من حضنها لتسرد له ما حدث ليلًا، وكيف صدمها ما رأته مكتوبًا على جدار الغرفة، ثم دماء ابنتها وهي تتدفق بعنف من رسغها، تهرع إلى خزانة الإسعافات الطبية لتحضر ما يسعفها، ثم تصارحها بالأحداث الأخيرة، والتغيرات التي طرأت عليها، وكذلك مصير قطتها، لتنهار وتبكي وتلطم خديها قبل أن تسقط فاقدة الوعي.

- طب إيه اللي خلاكوا تقولولها؟ مش اتفقنا نداري الموضوع فترة لحد ما حالتها تستقر!

- فريدة حالتها مش هتستقر يا حازم.

قالتها مريم دون أن تنظر إليه.

- ليه يا مريم بتقولي كده؟

- فريدة بتتحدانا يا حازم، أو بمعنى أصح...

سكتت لتستجمع رباطة جأشها:

- اللي ساكن فريدة بيتحدانا.

***

دست مريم الأسطوانة المدمجة في حاسوبها ليصدر صوت دورانه المعتاد، قبل أن تتوهج الشاشة في عرض مقطع آخر مصوّر لغرفة فريدة. تجلس بفراشها وهي تضم عروسة إلى صدرها، تهدهدها وتنظر إليها مبتسمة، تبدأ بالغناء بصوت خفيض وهي تمسح بيدها شعر دميتها. تترقرق عيناها بالدموع بينما تزداد ملامح وجهها انكماشًا وهي تقاوم البكاء، تنحني ليسقط شعرها كستار يحجب وجهها خلفه، ثم ترفع رأسها تدريجيًا مرة أخرى وقد سكنت ملامحها. تظهر رعشة بعينها اليمنى في تتابع، وهي تقول لدميتها شيئًا ما. هنا يدنو حازم بوجهه من الشاشة، رافعًا مستوى الصوت ليتبين كُنهَ ما يُقال، وبصعوبة تلتقط أذناه صوتها وهي تهمس بالإنجليزية:

- عزيزي فليب، اغفر لي عزيزي فليب.

ثم تنخرط في غناء أغنية إنجليزية بصوت مرتفع، وبعد ذلك تنظر

إلى الكاميرا بنظرة كره وغضب، ترفع يدها اليمنى في حركة بذيئة بإصبعها الوسطى، وتهجم على الكاميرا لتنتزعها و... تظلم الشاشة.

- صورتي حاجة تانية؟

- لأ، موضوع التصوير بقى صعب الفترة الأخيرة لإنها تقريبًا ما بتخرجش من أوضتها، وطبعا بعد اللي حصل مش هنعرف نصور حاجة تانية.

يعيد مشاهدة المقطع عدة مرات، ثم يخرج ورقة بيضاء ليدون بها شيئًا ما:

***

Oh Death Oh Death

How Can It Be?

For I'm Prepared For Eternity

Oh Yes, I've Come

To Get Your Soul

***

يجلس حازم بمكتبه، مسندًا رأسه على قبضة يده اليسرى، ممسكًا بورقته مدونًا بها الكلمات التي غنتها فريدة، وقد خط بقلمه عدة دوائر حول بعض الكلمات. ثم اعتدل في جلسته ليقذف بالقلم ويمسك بلوحة مفاتيح الحاسوب، يضغط على عدة أزرار بأنامله بسرعة وشغف كعازف محترف على آلة القانون، يفتح صفحة البحث

على الإنترنت (جوجل) ويكتب تلك الكلمات. لم يستغرق ثوانٍ لتظهر نتائج البحث:

- فيديو مصور لمقتل أحد الأشخاص.

- مقال عن كيفية حدوث الموت الدماغي.

- خبر عن مصرع رئيس دولة في ظروف غامضة.

- ثم ترتيلة دينية باسم (Oh Death).

يمسك الماوس ليضغط على تلك الوصلة لتظهر صفحة تخص موقع ويكيبيديا الشهير، يبدأ حازم في القراءة بصوت مرتفع وقد أضاءت الشاشة وجهه.

(ترتيلة غير معروفة المصدر، ترجع إلى الأمريكيين الأفارقة أواخر القرن الثامن عشر، وهي من التراتيل الدينية الروحية).

***

- ودي جابتها منين؟ وحفظتها إمتى؟ واشمعنى الأغنية دي بالذات؟ ومين فليب اللي كانت بتغنيله ده؟

انهال هاني بتلك الأسئلة على حازم وهو غارق في شروده. ثوانٍ مرت قبل أن يقول:

- مش عارف، أنا ما بقيتش عارف ولا فاهم حاجة، بقيت عامل زي المشلول العاجز، لا قادر أفكر ولا قادر أتحرك.

***

تدخل مريم وفريدة ستاربكس، ثم يجلسان على إحدى الطاولات في المنتصف لتبدأ مريم بالحديث:

- ها يا ستي، تحبي تشربي إيه بقى؟

تنظر إليها فريدة في استياء وتجيب:

- أنا مش فاهمة، بس يا مريم، كان لازمة الخروجة دي إيه؟ أنا ماليش نفس أعمل أي حاجة.

- يا فريدة يا حبيبتي، هتفضلي قافلة على نفسك كده لحد إمتى؟ لا تروحي الشغل ولا بتخرجي مع صاحبتك، ولا حتى عايزة تردي على تليفونات حازم؟

يقطع حديثهما النادل:

- تحت أمرك يا فندم، تحبوا تشربوا إيه؟

في اقتضاب:

- اتنين لاتيه لو سمحت.

- تحت أمرك.

ثم تستطرد مريم:

- وبعدين تعالى هنا، ممكن أفهم إنتي زعلانة من حازم ليه؟ هو إيه ذنبه في اللي بيحصلك؟ إيه اللي حصل منه علشان تقلعي دبلته وتديهاله؟

- حازم ملوش ذنب في أي حاجة تخص الموضوع ده، بالعكس، هو

ما قصرش معايا خالص، بس بقيت بشوف في عينيه نظرة ندم، أو بمعنى أصح نظرة حد اتورط.

زفرت في مرارة قبل أن تردف:

- فحبيت أعفيه من الورطة دي خالص.

- ملكيش حق يا فريدة، حازم بيحبك وكان هايتجنن عليكي يوم الحادثة، ومن ساعة ما دخل بيتنا وهو بيعاملنا على إننا أهله.

قاطعتها وهي تقاوم البكاء:

- حازم مبقاش بيحبني يا مريم، ومش حازم بس، إنتوا كمان بقيت أحس إني عبء عليكم.

قالتها ثم أحنت رأسها لإخفاء دموعها. تبادرها مريم وهي تمد ذراعيها لتلتقط أناملها في رفق وشفقة:

- يا حبيبتي، ما تقوليش كده، إنتي عارفة إننا بنحبك وما نقدرش نستغنى عنك، بس هي الظروف الأخيرة دي بس اللي خلتنا في حالة لخبطة مش عارفين نعمل إيه.

قالت وهي ترفع رأسها والدموع تترقرق بعينيها:

- حالة لخبطة تخليكوا تنسوا إن عيد ميلادي كان من أسبوع؟

أصيبت مريم بالذهول جراء قولها الأخير، لتسحب يديها ببطء، وهي تحدق إليها في صمت لبرهة لم يقطعها سوى صوت رقع الأكواب على الطاولة:

- أي خدمة تاني يا فندم؟

- ...

- أجيب لحضراتكم حاجة تانية؟

- ...

لم يأتها رد، فانصرف بهدوء، في حين استعادت مريم ذاكرة الكلمات مرة أخرى لتقول بهمس:

- طيب يا فريدة، معلش، إحنا آسفين إننا نسينا حاجة زي دي، عمومًا ملحوقة، وإن شاء الله نعملك عيد ميلاد زي كل سنة.

لم تجبها، في حين ارتكزت برأسها على يديها ليضع أحدهم علبة قطيفة أمامها. ترفع رأسها فتبصر حازم يقف مبتسمًا، ثم يمسك يدها وهو يدنو برأسه ليقبل جبهتها قائلًا:

- إوعى تعملي كده تاني، أنا بحبك ومقدرش أستغنى عنك.

ترقرقت عيناها بالدموع مرة أخرى، وهو يخرج الدبلة من علبتها، ثم يسكنها ببنصرها الأيمن ويلثم أناملها مرة أخرى:

- وحشتيني.

ابتسمت وهي تمسح دموعها بيدها:

- وأنت كمان وحشتني أوي.

ثم همت واقفة وهي تمسح دموعها:

- بعد إذنكم، هاروح التويلت.

قالتها وانصرفت، ليجلس حازم وهو ينظر لمريم:

- مالك يا مريم؟

نظرت إليه عدة ثوانٍ، تستجمع شتات أفكارها قبل أن تجيبه:

- فريدة زعلانة مننا.

- ليــه؟

- بتقول إحنا نسينا عيد ميلادها اللي كان من أسبوع.

بدهشة واستنكار:

- عيد ميلادها! إحنا في شهر فبراير، يعني فاضل على عيد ميلادها لسه ثمانية شهور.

***

- إيه الكلام اللي انت بتقوله ده!

قالها هاني وهو يستند إلى مكتبه مسندًا ذقنه على يده اليمنى المتعامدة على اليسرى، ليصمت برهة قبل أن يستطرد:

- أنا أعرف واحد يتلخبط في تاريخ ميلاد خطيبته أو مراته أو ما يفكرش أساسًا زي حالتي كده، لكن ينسى تاريخ ميلاد نفسه! دي صعبة أوي.

نظر إليه حازم في صمت من لا يجد ما يقال، ليدنو منه هاني ويربت على كتفه بتعاطف قبل أن يردف في استسلام:

- أعتقد دلوقتي ما فيش قدامك غير طريق واحد، وبعد كده محدش يقدر يلومك على أي قرار ممكن تاخده.

***

يدخل حازم وهاني لعيادة الدكتور سليمان حبيب، وتتبعهما فريدة وإيريني بخطوات بطيئة مترددة. يقترب حازم من الكونتر ليسأل الفتاة التي تجلس خلفه:

- لو سمحتي، عايز أحجز عند دكتور سليمان.

- تحت أمرك، اتفضل املا الأبليكيشن ده لو سمحت.

دس حازم يده في جيبه ليخرج بعض النقود، وهو ينظر إلى هاني الذي كان يتفقد المكان بشغف ودهشة. ظل طوال الطريق يقلب الأفكار والتصورات حول عيادة معالج روحاني: كيف ستكون؟ وخاصة إن كان حاصلًا على شهادة متخصصة في مجال الباراسيكولوجي من الكلية الملكية البريطانية كما أخبرهم الإعلان التليفزيوني، وكيف يبدو مرضاه؟

وراح يلقي النكات حول توقعاته لما قد يقابل من مرضى: رجل منكوش الشعر يزعم بأنه المسيح الدجال، أو امرأة متزوجة عرفيًا بكائن فضائي من كوكب المريخ، لكنه لم يجد شيئًا من هذا القبيل، أناس طبيعيون ممن تقابلهم يوميًا في الطرقات أو تجلس بجانبهم في وسائل المواصلات العامة، لا يميزهم أي شيء غير طبيعي.

عيادة فاخرة بما تحمل الكلمة من معنى، ديكورات صممت بعناية وتناسق، كراسي جلدية وثيرة، حتى بعض مريديها تشي هيئتهم وملابسهم بثراء فاحش، يجلسون في صمت بعيون تتابع شاشات التليفزيون المعلقة على جميع حوائط العيادة، تعرض برنامجًا يتكلم

عن أحدث طرق العلاج الروحي، وبقليل من الذكاء يمكن أن تتوقع ضيف الحلقة، نعم هو الدكتور سليمان حبيب.

انتهى حازم من إجراءات الحجز، بينما جلست فريدة وإيريني على آخر مقعدين شاغرين بالعيادة، بينما جذب هاني حازم من يده ليقفا مستندين إلى الحائط وهما يتابعان شاشة التليفزيون المقابل في شغف، والدكتور سليمان بهيئته الوقورة وملابسه المهندمة، وشعره الأسود الفاحم، وكذلك حاجباه المرسومان بدقة، يتدلى منهما أنف محدب دقيق يفصل بين عينين حادتين ثابتتين وتنتهي بفم صغير وشفاه غليظة بحمرة خفيفة، يتحدث بثقة وهدوء، كرجل يعرف من أين يؤكل الكتف، بينما كانت المذيعة تحاوره بأسلوب جاهدت كثيرًا ليبدو أكثر دهاءً وحكمة، لتحظى بأكبر قدر من إعجاب مشاهديها وتعليقات تمدح تألقها وحنكتها.

- ليه أغلب المعالجين الموجودين على الساحة الناس بتتهمهم بالنصب؟

فيجيب وهو ينظر مباشرة إلى عينيها بثبات:

- في شعرة بسيطة جدًا بين المعالج الحقيقي والنصاب، وكتير من الناس ما يعرفوش يفرقوا بين الاثنين، وده للأسف بسبب جهل معظم الناس وقلة خبرتهم. النصاب يعتمد على الإبهار في تعامله مع المريض لحد ما يكسب ثقته ويسيطر على عقله، بعد كده لو طلب منه يرمي نفسه من الدور العاشر، ها ينفذ وهو كله ثقة إن ده ها يعالجه، ويمكن النصب ده ضيع حق ناس كتير جديرين فعلًا إن يتقال عليهم معالجين ناجحين.

- تنصح المريض بإيه قبل اختيار المعالج علشان ما يقعش في فخ النصب؟

- المعالج لازم يكون حد دارس أساليب وطرق العلاج وما يكونش دارسها في أي مكان والسلام، لأ، لازم يكون مكان معتمد، والدراسة فيه بطرق وأساليب منهجية، ودراسته ما تتوقفش بمجرد حصوله على إجازة ممارسة المهنة، لازم يكون مطلع دومًا على آخر وأحدث طرق العلاج.

- وده يحصل إزاي؟ يعني يطلب الاطلاع على الشهادات اللي خدها المعالج قبل ما يكشف عليه؟

- هل إنتي لما بتروحي لدكتور بتعملي كده؟

لم تجبه ليستطرد قائلًا:

- المسألة معتمدة على سمعة المعالج ومدى اقتناع المريض به.

- ممكن أسأل حضرتك عن ديانتك؟

يبتسم في هدوء قبل أن يجيب:

- أنا بدين بكل ما يقبله العقل وتهدأ له الروح، وعمومًا مسألة الديانة دي حاجة ما تهمش حد.

تنظر له المحاورة في خبث قبل أن تنتقل إلى سؤالها التالي:

- كلمنا باختصار عن علم الباراسيكولوجي.

- الباراسيكولوجي هو علم ما وراء علم النفس، أو زي ما بيسموه بعض العلماء (علم النفس الموازي). ظهر الباراسيكولوجي سنة

1889، بس للأسف حتى الآن مش منتشر في بلادنا العربية. هو علم بيتعلق بالقدرات فوق الحسية أو الخارقة.

- زي إيه؟

- زي التخاطر، التنبؤ، الجلاء البصري، الاستشفاء، تحريك الأشياء عن بعد، وكمان التنويم الإيحائي والمغناطيسي، وخبرة الخروج من الجسد.

- ما معنى الخروج من الجسد؟

- إن روحك تغادر جسمك بصفة مؤقتة أو نهائية في حالة الموت، لا قدر الله.

- وبفناء الروح ده هل يمكن أن...

قاطعها قائلًا:

- الأرواح لا تموت ولا تفنى، لكن الأجساد فانية.

- طب لو الروح لا تموت ولا تفنى، يبقى بتروح فين؟

- مسألة "بتروح فين" عليها خلاف كبير أوي، محتاجة سلسلة حلقات كاملة علشان نناقشها.

- هل حضرتك مؤمن بتناسخ الأرواح؟

- تناسخ الأرواح كفكرة تقبلتها معظم الأديان والمعتقدات، ما عدا الإسلام، جموع الأئمة رفضوا الفكرة دي خالص.

مرة أخرى بخبث:

- أنا بسأل عن حضرتك؟

يبتسم:

- أنا أؤمن بأي فكرة إلى أن يثبت خطأها.

- حضرتك تنبأت منذ سنوات بعدة تنبؤات، منها اللي ما تحققش ومنها اللي اتحقق، زي ثورة يناير وخلع الرئيس ووفاة عمر سليمان ووفاة عدة فنانين مشهورين وأحداث سوريا وغيرها، ممكن أسأل حضرتك... بتعتمد على إيه في تنبؤاتك؟

- الجن والعفاريت.

يلقيها مداعبًا لتضحك قائلة:

- لا فعلًا، يعني بتجيب حسابات معيّنة؟ بتقرا الأحداث الجارية فتحاول تسرح بخيالك علشان توصل لنتائج مستقبلية؟

- الموضوع متشابك ما بين علم الفلك وحركة النجوم وحسابات رياضية وهندسة كواكب، وهكذا... تعقيدات يطول شرحها.

خاضت في العديد من الأسئلة والاستفسارات، حتى أشار لها المخرج من خلال سماعة الأذن بدنو نهاية الحلقة.

- آخر سؤال معانا في حلقة النهاردة، تنبؤات العام القادم!

- سيشهد العام القادم ظاهرة فلكية تتمثل في اقتران أربعة كواكب، وهي الشمس والقمر وعطارد وبلوتو، مع أسهم الافتراء والبهتان في البيت الأول لطالع العام، اللي هو القوس.

تقاطعه:

- بس طول عمرنا نعرف إن الشمس والقمر مش كواكب.

يبتسم تلك المرة دون تعقيب، ليكمل حديثه:

- هتحصل أعاصير وفيضانات وحرائق بإيران وتركيا وبلدان جنوب القارة، في تشرين الأول هيسود العالم رعب بسبب حدث كوني غريب، هيحصل اغتيال لقاضٍ وداعية إسلامي بارز وسياسي محنك، وهيموت فنانين مصريين، وهيتقتل فنان شاب آخر، ده غير وفاة رئيس جمهورية سابق في ظروف غامضة، وهيتعمله جنازة شعبية ضخمة، وأخيرًا فوز الزمالك بالدوري.

تبتسم وتحاول عدم إفلات ضحكاتها:

- أعتقد كل ما سبق ممكن يتحقق، ما عدا نبوءة واحدة.

ثم تنظر إلى الكاميرا:

- إلى هنا أعزائنا المشاهدين نصل لنهاية حلقتنا من برنامجنا، على أمل أن نكون قد أسعدناكم، وإلى اللقاء في حلقة أخرى، ولكم منا أفضل الأمنيات وأرق تحياتي... هيام عبيد.

انتهى اللقاء التليفزيوني ليشرع هاني في الإفصاح عن امتعاضه مما سمعه:

- شكله نصاب وبيبيع عصافير.

- نصاب بقى، حرامي، زي ما أنت قولت، ما فيش قدامنا حل تاني، وبجملة اللي رحنا لهم.

- طيب، بس في حاجة مستغربلها بقالي فترة ومش عايز أسألك

عنها، خايف تتضايق.

- حاجة إيه؟

- بالنسبة لمامتها وأختها.

- مالهم!

- منفضين إيديهم من الموضوع تمامًا، يعني محدش منهم حاول ييجي معاك في مشوار من المشاوير دي كلها.

- بص يا هاني، فريدة من أول يوم قابلتها بقت تخصني، مسؤولة مني، ومش منتظر ولا عايز من حد تاني يشاركني المسؤولية دي، وبعدين تعب مامتها بعد الحادثة خلّى حركتها بقت صعبة شوية، ده غير إن أنا اللي طلبت عدم وجودهم معايا، لأنهم بصراحة ممكن يكونوا عبء عليّا.

- وانت؟

- أنا إيه؟

- ما بتخافش منها؟

- بخاف منها، بس مش عليّا... عليها.

زفر نفسًا حارًا قبل أن يتابع:

- خايف تعمل في نفسها حاجة، مش عارف أنا ممكن يحصل لي إيه بعدها؟

- طيب، لما تدخلوا متنساش تحكيله عن كل حاجة بالتفصيل

علشان...

قاطعه حازم باستغراب:

- ندخل! هو انتو مش ناويين تدخلوا معانا؟

- لأ... بلاش علشان فريدة ما تتضايقش.

- لا يا سيدي، فريدة مش هتتضايق، علشان هي اللي طلبت وجودكم أساسًا معانا النهاردة، انت عارف علاقة فريدة بإيريني بقت قوية إزاي في الفترة الأخيرة.

ربت هاني على كتفه وهو ينظر إلى فريدة التي انهمكت في الحديث مع زوجته في حب:

- ربنا يديم المعروف يا حازم.

بعض الأشخاص وجودهم بالحياة ضروري وحتمي كالماء والهواء، كذلك كانت علاقة حازم بهاني؛ أصبح لا يستغني أحدهما عن الآخر، وبالأخص حازم، لم يعد يستطيع العيش بدون هذا الكائن المسمى بهاني، الوحيد الذي لطالما نجح في انتزاع بسمته في مبلغ ضيقه وبأسه، البوصلة التي يعتمد عليها لتحديد اتجاه سير فكره وقراره.

قطع تسلسل أفكاره صوت يدعوهم للدخول ولقاء الدكتور، ليتقدم حازم ممسكًا بيد فريدة، ويتبعهما هاني وزوجته، وبمجرد دخولهم أُغلق الباب خلفهم.

***

جلس حازم في مواجهة فريدة أمام مكتب الدكتور سليمان

حبيب، بينما استقر هاني بجوار زوجته على الأريكة في خلفية المشهد، مسلطين أعينهم على الرجل الجالس خلف المكتب في ثبات، لا يتحرك منه سوى يده اليمنى الممسكة بقلم مذهب يكتب شيئًا ما بحركة تشبه مؤشر رسم القلب صعودًا وهبوطًا.

يرتدي بدلة وقميصًا أسودين، وربطة عنق حمراء، وساعة فاخرة تطوق معصمه الأيسر، تنم عن ذوق فاخر يظهر جليًا أيضًا في تكوين غرفة المكتب الواسعة بإضاءتها الخافتة وأثاثها الوثير. خمس دقائق كاملة مرت دون أن ينبس بحرف، قبل أن يغلق الملف المفتوح أمامه ويلتفت إلى الحضور بابتسامة رقيقة، يرحب بهم ويسأل عن سبب الزيارة.

- خطيبتي فريدة بتمر بظروف غريبة شوية من فترة.

أخرج الدكتور ملفًا جديدًا ليدون عليه اسم فريدة بالكامل قبل أن يقول:

- احكي لي بالتفصيل إمتى بدأت المشكلة، من أول يوم لحد ما شرفتوني هنا.

سرد له ما حدث منذ سقوطها في البئر وحتى الأحداث الأخيرة، وهو يستمع باهتمام وتركيز ويدوّن بقلمه، بينما كان هاني ينظر لزوجته التي برزت عيناها في عدم تصديق لما تسمع، فبالرغم من علمها بحالة فريدة، إلا أن بعض التفاصيل تزيد الأمر سوءًا.

انتهى حازم من السرد، لينهض الدكتور من مقعده متجهًا إلى الشيزلونج، داعيًا فريدة للاستلقاء عليه. قامت وهي تمشي في

خطى مضطربة، بينما تتابعها الأعين، ثم استلقت ممددة وهي تزدرد ريقها في توتر، ليبدأ الدكتور في الكلام بصوت رخيم، سألها إن كانت ترغب في إجراء الجلسة على انفراد، إلا أنها لم تمانع.

- عظيم، مدّي إيديكِ الاتنين بمحاذاة جسمك، غمّضي عينيكِ، وارخي نفسك خالص، وعايز مخك وعقلك مع صوتي أنا بس.

- حاولي تطردي كل الأفكار السلبية والذكريات السيئة من دماغك تمامًا، عايزك تفرغي دماغك من كل شيء سلبي، فكري بس في لحظة حلوة عيشتيها، أو حتى اخلقي إنتِ اللحظة دي وعيشي نفسك فيها، دلوقتي هتحسي بشكة بسيطة أوي في دراعك، دي مجرد حقنة هتساعدك على الاسترخاء.

أنهى كلامه قبل أن يخرج محقنًا ويملؤه بسائل أزرق، ويغرزه بهدوء بذراعها الأيمن ليبدأ السائل في التسلل ببطء في الوريد، يفرغ السائل ثم ينتزع المحقن، واضعًا ضمادة مكانه قبل أن يتخلص منه. جلس على أحد المقاعد الوثيرة، واضعًا رجله اليمنى على اليسرى، ممسكًا بمفكرة وقلم. ضغط على لوحة كهربائية موضوعة على يمينه تحمل عدة أزرار ملونة، وتنطلق منها ومضات خفيفة، وكذلك عدادات مختلفة تشير لقياس شيء ما، لوحة كهربائية كالتي نراها مثبتة بقُمرة قيادة الطائرة، متصلة بعدة أسلاك تتدلى من خلال أنبوب يخترق الأرضية. بدأت المؤشرات في الهياج لثوانٍ معدودة قبل أن تهدأ تمامًا وتستقر على قياسات معينة. بدأت الكاميرا المثبتة بأركان الغرفة بإصدار ومضات متقطعة، لينتبه الحاضرون لوجودها لأول مرة منذ دخولهم، تبرز عدسة من اللوحة لينطلق منها شعاع

ضوئي ينعكس على سقف الغرفة ليشكل دائرة حلزونية كالدوامة تدور دون توقف. همست إيريني بأذن هاني ليلتفت إليها الدكتور مشيرًا لها بالصمت التام، فتبتلع كلماتها مرة أخرى وتتابع ما يحدث.

- فريدة.

- نعم.

- دلوقتي هاتفتحي عينيكِ بالراحة، وتركزي على نقطة ارتكاز الدائرة المرسومة قدامك على السقف.

تفتح عينيها في بطء شديد لتتابع الدائرة التي تدور بسرعة متزايدة، تشعر وكأن سقف الغرفة يهوي عليها. مرت دقائق حتى بدأ جفنيها في التراخي رويدًا رويدًا، يزداد ثقلهما طنًا تلو الآخر، يرتخي جسدها كجثة تطفو فوق سطح المحيط، تغلق عينيها تمامًا ليبدأ الدكتور بالكلام:

- فريدة.

- أيوة.

- ممكن تعدي من واحد لعشرة؟

- واحد، اتنين، تلاتة... عشرة.

- عايزك ترجعي بذاكرتك ليوم الحادثة، يوم ما وقعتي في البئر، وأول ما تحسي إنك قادرة تحكي اللي حصل، حركي إصبع إيدك اليمين. إنتِ دلوقتي في المتحف والبير قدامك.

مرت ثوانٍ قبل أن يتحرك إصبعها إشارة بالاستعداد:

- تمام، إيه اللي حصل بالظبط؟

- أنا كنت قاعدة على السور، وبعدين... وبعدين... اتزحلقت وقعت على ضهري جوه البير.

- وبعدين؟

- غرقت في المياه وراسي اتخبط جامد، وحسيت الدنيا بتدور بيا، و.. و.. فضلت أحرك دراعي علشان أحاول أطلع على السطح تاني و...... و......

ابتلعت ريقها وقطرات العرق تلهو فوق جبينها قبل أن تستطرد:

- بدأت أختنق وحسيت إني خلاص قربت أموت.

- كنتي حاسة بإيه؟

- كنت مرعوبة... لحد... لحد ما جت ومدت لي إيديها.

- هي مين؟

- ...

- مين اللي مدتلك إيديها يا فريدة؟

- ...

- طب هي معانا هنا؟

- ...

- لو موجودة معانا، حركي إصبعك.

مرت دقائق من سكون مطبق استحوذ على الحاضرين، تصلب الجميع وكأن على رؤوسهم الطير، اجتمعت الأعين على إصبعها. انقضت عدة دقائق أخرى دون جدوى، بدأ الدكتور في التململ، هم بالنهوض لولا أن استوقفته شهقة خافتة من إيريني، ليلتفت إليها عازمًا على نهرها، فيجدها تشير بإصبعها وهي تحدق بفزع إلى إصبع فريدة الذي راح يرتعش في توتر. جلس مرة أخرى وهو ينظر إلى الجسد الممدد أمامه، وقد توقف إصبعها عن الحركة مرة أخرى ليعود إلى سكونه، يلقى نظرة على المؤشرات التي بدأت في الاضطراب مرة أخرى، يمد الدكتور يده لينتزع دبوسًا مثبتًا بجانبه ويوخزها في ذراعها، لا تستجيب، فيعيد الدبوس لمكانه مرة أخرى قبل أن يبدأ في الكلام:

- انت مين؟

- ...

تابع الجميع بعيون فزعة، شفتيها انتظارًا للرد، والدكتور يكرر السؤال على مسامعها عدة مرات دون إجابة، إلى أن:

- أخيرًا.

خرجت بالإنجليزية واضحة وبصوت لا يمت بصلة لفريدة التي بدت وكأنها قد فارقت الحياة. أعاد عليها السؤال مرة أخرى ولكن بالإنجليزية تلك المرة:

- ما اسمك؟

- بيـ... بيـ... بيــل.

- ماذا تريدين يا بيل؟

- البراءة.

فتسقط إيريني فاقدة الوعي.

***

لم يكترث المعالج لما حدث لإيريني، فقد انجذب كالمسحور بجميع حواسه إلى الجسد الممدد أمامه، لينخرط معه في حديث طويل بالإنجليزية:

- ولم هذا الجسد بالتحديد اخترتِه لتسكنيه؟

- لم أختره، ولكن حظه العَثِر هو من فعل.

- حسنًا، عن أي براءة تتحدثين؟

- براءة من ذنب لطالما صاحبني حيًا وميتة، ذنب جعلني أتمنى الموت ليلة تلو الأخرى وأنا أنصت لكل دقة من دقات عقارب الساعة، لعلها تكون الأخيرة...

صمتت قليلًا قبل أن تستطرد وبصوت عميق ذي صدى صاخب:

- ولكم كنت واهمة، لم أكن أعلم أن الموت حين خطا شامخًا نحوي بظلاله السوداء قد قرر أن يعاقبني ويزيد بؤسي بؤسًا.

- بيل.. لما لا تحكي قصتك؟

- سأحكي، ولتستمع بقلبك، فما عاد للروح طاقة.

***

أواخر القرن التاسع عشر، وتحديدًا 22 نوفمبر 1859، بلدية سيلبو بمقاطعة سور ترونديلاغ، النرويج، لفظني رحم أمي لألتقط أول أنفاسي في الحياة بصراخ اعتراضي كمن يخطو بقدمه إلى الجحيم ذاته.

الشــؤم...

هكذا لُقبت منذ أن أبصرت الحياة.

الحق يقال، ودون أدنى مبالغة، استحققت هذا اللقب وعن جدارة.

أتتهمني بالمبالغة! إذًا أرجو أن تحكّم عقلك.

كان ترتيبي الثالث عشر بين إخوتي من أبناء عائلة ستون ماسون. أرى معالم الدهشة تتسلل إلى قسماتك، أرجو ألا تتعجل وادخر بعضها لما هو قادم.

ولدت لأب وأم ذوي ثراءٍ فاحش، ثراء لا تسمع عنه أو تقابله سوى في الأساطير وقصص الجدة. وبعد عدة أسابيع، أبَى الباب الذي عبرت خلاله للحياة أن يغلق قبل أن يغادر من خلاله خمس من إخوتي دفعة واحدة جراء داء عجز أمهر الأطباء عن علاجه، الأمر الذي أصاب أبي وأمي بالأسى والكمد، لتلحق الأخيرة بإخوتي ويتحمل الرجل وحده مسؤولية ثمان أرواح.

عاقر الخمر، لازم الحانات، أصابه الخرف المبكر، ليقضي خلال عامين على ثروته عن بكرة أبيها، احتضن أختي الكبرى وهو يلقي على مسامعها وصاياه الأخيرة، ولم ينس بالطبع أن يحدجني بنظرة لم تفارق مخيلتي إلى الآن، قبل أن يسلم الروح إلى خالقها ويغادر في سلام.

حينئذ أدركنا حجم البؤس والشقاء الذي ينتظرنا، تناثر الأشقاء بين دروب الحياة كالحب في أرض بور، ليستقر بي الحال بين أسرة فقيرة لأعمل خادمة. لم تزل سنوات عمري بكرًا، لازلت أتذكر كيف كان يومي ينقضي في شقاء بين أعمال المنزل وشراء متطلبات امرأة

حمقاء لا تكف عن التذمر طوال الوقت، فضلًا عن زوج جف ريقه سبًا وبصقًا، ولا أنسى دور الشيطانة الصغيرة ابنتهما في ضربي وإلحاق الأذى بي دائمًا بداعٍ وبدون، كل هذا مقابل إيوائي وتحصيل فُتات فضلهم من المأكل والملبس. كم تمنيت الموت وأنا أرقد آخر الليل بمضجعي بالحظيرة المظلمة، سوى من ضوء قمر يتسلل في رتابة من إحدى النوافذ، لينعكس على قطرات دموع تنساب دون إرادة مني فترووى فم قتله الآنين.

هكذا مرت سنوات طفولتي إلى أن كبرت واشتد عودي، تعرفت على (فليب) أو (الشقي) كما كان يُلقب آنذاك، أحببته وعشقني، ارتبطنا في حضور أختي الكبرى، لم يمضِ شهر ليختفي فليب إلى الأبد، تاركًا حزنًا بالقلب ومُضغةً بين أحشائي تكبر يومًا بعد يوم. أذكر يوم أن وقفت في حفل زفاف إحدى شقيقاتي، أرقب في صمت الجمع الذي انخرط في الغناء والرقص، اصطكت الكؤوس، ارتفعت صيحات النشوة، انتشت العقول وزاغت الأبصار.

أرى أحدهم يغادر الحشد وهو يترنح لا يقدر على كبت جماحه، أراه ينطلق نحوي كسهم غادر بلا هدف، يرتطم بكتفي كثور هائج، أطير إلى الخلف عدة أمتار قبل أن أهبط، وترتج بطني بجنينها قبل أن يلفظ فرجي دمًا كالشلال.

بكل الغضب والكره أدرت ظهري لوطني، سافرت لأمريكا أرض الفرص والأحلام، متسللة على ظهر مركب كاللصوص، أملًا في دنيا جديدة وحياة أفضل.

استقر بي المقام بمدينة شيكاغو، لغة غير اللغة، وبشر غير البشر،

وأسلوب حياة فُرض عليّ قهرًا. تحملت التشرد وعناء البحث عن مهنة أبدأ بها حياتي المرجوة، عملت بمتجرٍ متخصص في صنع الحلوى لعِلية القوم. كم كان يقتلني أن أرى أسرة تحضر لشراء ما يلزمها من الحلوى الطازجة، والزوجة تحمل طفلها وهو يتدلل بالاختيار ويشير هنا وهناك. أرجو أن تعذر حقدي الدفين، فأنا لم أتذوق طعم البنوة ولا الأمومة، كيف لي أن أعيش هكذا؟

ذات يوم أدرك بصري السيد (مادز سورينسون) وهو يسترق النظر إليّ وأنا أسلمه إيراد ما تم بيعه، ليجذبني من يدي ويجلسني أمامه قبل أن يصارحني برغبته العارمة في الزواج، بالرغم من فارق سنوات العمر الكبير.

بالفعل، تمت الزيجة في هدوء وصمت، ولم يمر سوى أسبوع واحد ليكشف سورينسون عن وجهه القبيح، رجل غليظ القلب لا يعرف سوى المال والثروة. عشت معه بجسدي دون قلبي، أنجبت منه أربعة بنات أنسوني بعض البؤس والشقاء إلى أن جاء يوم وفاته، لأرث منزلًا ومتجرًا للحلوى ليشب حريق ويقضي عليهما، وكذلك اثنتين من ملائكتي في الآن ذاته. انتقلت مع ابنتي (لوسي) و(ميرتل)، هما كل ما أملك، للعيش بإحدى الغرف تحت الأرض يعتصرنا الجوع والفقر عصرًا، إلى أن تعرفت على (بيتر جانيس) مهاجر نرويجي قوي البنية، يملك مزرعة لتربية الخنازير ويعمل قصابًا. في البداية طلب مني الانتقال إلى مزرعته لمساعدته في إدارتها، وكذا تربية طفلتاه من زوجته السابقة.

ما رأيته عرضًا لا يُرفض آنذاك، انتقلنا للعيش في بلدة (لابورتي)

بولاية إنديانا، كنت الملجأ والمفر له في كل شؤون حياته، إلى أن تقدم لي طالبًا الزواج، ليتم سريعًا بمباركة بناتي، ولألقب بعد ذلك بالسيدة (بيل جانيس). ولكن فجأة ماتت إحدى طفلتاه بعد أسبوع واحد فقط من الزواج، ليلحق (بيتر جانيس) بابنته، وتلتحق الأخرى (جيني) بإحدى المدارس الخاصة بشيكاغو، وأكتشف حملي بولد منه، سميته بعد ذلك (فليب) تخليدًا لذكرى أول من أحببت، واكتفيت بأبنائي الثلاثة، وإرث عظيم من زوجي السابق، وقطعت دابر الزواج مرة أخرى.

بعد فترة استأجرت أحدهم لمساعدتي في إدارة شؤون المزرعة، رجل أعزب اسمه (راي لامفر) ذو عينين زرقاوين وشعر ناعم، وشارب كث. كان صامتًا كالقبر، قنوعًا بأقل القليل، يستيقظ صباحًا ليبدأ عمله ولا يتوقف سوى ليأكل أو ليشرب، يفعل في صمت، يشكر بكلمات مقتضبة ولا ينتظر مدحًا لعمله، غريب حقًا. تكمن غرابته في زهده واعتزاله الحياة، جُل متعته تتلخص في كأس من النبيذ الأحمر القاني مع سيجار (كوهيبا) الكوبي.

رأيته يومًا ملتصقًا بسور المزرعة، ممسكًا بسيجاره المفضل بين شفتيه، وهو يلتهمه كجائع يتناول وجبته الأخيرة، ثم يعقب ذلك رشفة من كأسه الأحمر، كل ذلك يحدث بآلية، بينما انهمكت عيناه شرودًا تحكي أسرار الكون. اقتربت بخطى وئيدة حتى لا أعكر صفو شروده، ولكن صوت تهشم العشب تحت قدمي انتزعه من عالمه الخاص ليعتدل في وقفته، ويضع كأسه جانبًا، ويقبل بابتسامة مهذبة، مصافحًا:

- سيدة جانيس، كيف حالك؟

- بخير، أعتذر عن المقاطعة.

- لا بأس، كنت شاردًا بعض الشيء.

- لاحظت ذلك، هل من مشكلة؟

امتص سيجاره بقوة بين شفتيه لتزداد توهجًا، ثم طرد دخانها كالضباب قبل أن يجيب:

- لا شيء، مجرد متاعب عادية.

- أتتعلق بعملك هنا في المزرعة؟

- لا أبدًا، أنتِ شخصية جميلة ولكِ كل الاحترام، سيدة جانيس.

- بيل، نادني بيل فقط.

- حسنًا، بيل.

- هل يمكن أن أدعوك لامفر؟

- بالتأكيد يمكنك، بيل.

- إذًا، لماذا لا تنضم إلينا على مائدة العشاء؟

- أشكر كرمك، بيل، ولكن...

- غير مسموح بالاعتذار، لامفر، فأنا لا أقبله، تفضل معي.

***

تناولنا العشاء أنا وأبنائي مع الرجل الأول منذ وفاة زوجي، لم

يتوقف عن ترديد كلمات الشكر والثناء على مذاق طعامي، ألقى العديد من النكات على مسامع بناتي (لوسي وميرتل)، بينما كانت يداه تداعب صغيري (فليب) وهو يؤدي بعض التعبيرات المضحكة بوجهه، أضفى روحًا من المرح على الوجود. لم أكن أعلم أن ذلك المخلوق الجاد بملامحه الصارمة يحمل قلب طفل. انصرف الأطفال بعد مصافحته وتقبيله بحرارة، لنجلس معًا، وأبدأ في فك شفرة خزانة أسراره رويدًا رويدًا، حكى لي عن معاناته مع زوجته السابقة، وكيف كانت تعشقه لحد الجنون، كيف استحكمت الغيرة على قلبها فباتت تشك في أصابع يدها، مرورًا بمشاكل ما قبل الانفصال وتوعدها بالانتقام من رجل لم يقدّر حبها وعشقها، وصولًا إلى أن قابلني وكيف وجد فرصة العمل بالمزرعة ملائمة لتلهيه عن أفكاره وذكرياته البائسة.

بمرور الأيام توطّدت علاقتنا وزادت ثقة كل منا بالآخر، إلى أن جلس يومًا ليعلن حبه لي وتعلقه وشغفه بأسرتي الصغيرة، الأمر الذي تقبلته بفرحة ورضا، تائهًا في الصحراء وجد الماء بعد طول سفر، هيأت له إحدى الحجرات ليعيش بها ليكون بجانبنا، وبالفعل أصبح جزءًا لا يتجزأ من عائلتي الحبيبة، إلى أن جاء ذلك اليوم المشؤوم.

ثم......

ثم.........

- ثم ماذا، بيل! أكملي من فضلك.

- لا تتركني من فضلك، أنقذني.... براءتي.

- أكملي، بيل، حتى أستطيع مساعدتك.

- ابحث أرجوك.

قالتها كمن يلفظ أنفاسه الأخيرة:

- أبحث عن ماذا؟

ارتعشت قبل أن يتحجر جسدها وتبرز عروقها لتخرج حشرجة:

- ابحث... تجد.

ثارت المؤشرات مرة أخرى قبل أن تستقر على قياسات محددة، يرتخي جسد فريدة لتبدأ في أنين متقطع، قبل أن تلعق شفاها يابسة بلسانها وهي تحاول جاهدة فتح عينيها، تعتدل في بطء لتجد إيريني بعد أن أفاقت، تستند برأسها على كتف هاني الذي تصلب بدوره لا يدري ماذا يفعل أو يقول، وحانت منها نظرة إلى حازم لتجده مطأطأ الرأس، مشبكًا يديه ينظر إلى اللا شيء، بينما المعالج انضم لقافلة الأبصار الشاخصة والأفواه الفاغرة. استجمعت قواها لتستعيد القدرة على النطق مرة أخرى، حتى استطاعت أن تهمس بصوتها المألوف:

- هو في إيه!

***

- في إيه؟! بتسألني في إيه! فيه إنك بقيت مهندس مهمل!

هكذا صاح مدير حازم في غضب، بعد أن أشعل سيجارة (مارلبورو) بقداحته المذهّبة، ثم ألقاها على المكتب بغطرسة،

والتقط هاتفه الذكي ليضعه أمام وجه حازم مستطردًا:

- عشرين مكالمة من شركات بتشتكي من التأخير وبتِهدّدنا بفسخ عقودها، وده عمره ما حصل قبل كده، مالك؟ في إيه؟ كنت دايمًا مثال وقدوة لزملائك، وشغلك بيخلص مظبوط وفي وقت قياسي.

كل ما قيل، وحازم يقف بارتخاء وينظر للحائط دون اكتراث، منتظرًا أن يُنهي أُسطوانته المستهلكة عن المسؤولية والضمير، وكيف تغيّر حال مهندسي اليوم عن قدامى المهندسين، ولكن يبقى مقطع لم يُعزَف بعد، يحفظه حازم جيدًا وعن ظهر قلب؛ يبدو أن المدير قد نسيه في خِضَم تقمُّصه لشخصية بيل جيتس.

- الشركة مش مقصّرة معاك لا ماديًا ولا معنويًا، أنا لما كنت في سنك كنت بقبض يادوب اللي...

ما زالت ذاكرته تعمل جيدًا، يبدو أنّه ادّخر المقطع الناقص ليكون الأخير، كمخرجٍ يُنهي فيلمه بمشهد العِبرة قبل أن تهبط كلمة النهاية. (يفكّر حازم)

- وما تقوليش ظروف، ما كلنا عندنا ظروف يا أخي، لو مش عارف تظبطها...

كم هو مدهش هذا الرجل، يمتلك ملكة الارتجال والتجويد دائمًا في إظهار نفسه المثالي الوحيد بهذا الكون. متى سينتهي من خطبة تأميم مكارم الأخلاق لشخصه الكريم؟

أشعر بصداعٍ فظيعٍ يدمّر رأسي.

- طول ما إنت مصاحب الفاشل التاني اللي اسمه هاني ده، عمرك

ما هيِتركّز في شغلك ولا في...

حمدًا لله، لستُ الفاشل الوحيد على الأقل، ويبدو أن جهازه العصبي قد أصابه عطبٌ ما، ويبدو أيضًا أن الأسطوانة ستدور مجددًا بمجرد انتهائها.

يبدو لي كل ما سبق، ولكن المؤكّد أنّني مضطر إلى فعل التالي.

- إنت سايبني ورايح فين؟ مش بكلمك؟ إنت يا أستاذ! طب وشرفي لو خرجت من المكتب ده...

أخرسه صوت ارتطام الباب، وحازم يوصده خلفه، ثم يتجه بطريقة آلية إلى المكتب وهو يخلع سترته ويرخي ربطة عنقه. قابل مصطفى في طريقه.

- خير يا باشمهندس حازم؟ مالك؟

- اعملي واحد قهوة دوبل من غير سكر خالص وهاته عَ المكتب.

- حاضر يا باشمهندس، بس كنت عايز أقولك...

- بعدين، بعدين.

يدفع باب مكتبه بيده ليرتطم بالحائط بعنف، فيهب هاني من مقعده، باسطًا كفّيه في تساؤل ودهشة.

- مالك يا حازم؟ كان عايز منك إيه الراجل ده؟

يلقي حازم جسده على المقعد وهو يزفر في غضب.

- ولا حاجة، الهري بتاع كل مرة، ما تشغلش بالك.

عقد ذراعيه على مكتبه وهو يُرخي رأسه، ثم رفعها فجأة مستدركًا:

- آه نسيت، بيسلّم عليك وبيقولك إنت فاشل.

***

يستلقي حازم على أريكة الصالة، يقبض بيده اليمنى زجاجة باربيكان، وتداعب يسراه وحدة التحكُّم. يتنقّل بين القنوات بلا هدف، ثم في يأس يختار إحداها ويلقي بالريموت جانبًا. يجرع كمية كبيرة من الزجاجة لينهيها جرعةً واحدة. يقوم متثاقلًا متجهًا للثلاجة ويفتح بابها، ليسطع نورها فينكمش وجهه في ضيق، ثم يتوقّف برهة لا يعلم ماذا يفعل.

هو أنا كنت عايز إيه؟... آه.

يمد يده وينتزع زجاجة باربيكان أخرى تنتظر دورها، يفتحها ويتجرّع سائلها قبل أن يرن جرس المنزل بعنف. ينتفض فزعًا، وتسقط الزجاجة من يده لتتهشّم أرضًا وينفجر سائلها بصوتٍ مكتوم. ينظر لساعة يده، ولكنه لا يجدها. يتساءل عمّن يأتيه في هذا التوقيت المتأخّر! بل من يأتي لبيته في أي توقيت عمومًا!

لقد كف جرس منزله عن العمل منذ أن عاش وحيدًا في هذا المنزل. ينسى أن يُغلق باب الثلاجة وهو يتحسّس طريقه حتى لا تخترق شظايا الزجاج قدمه. يقف خلف الباب وهو ينظر من خلال عينه الزجاجية المقعّرة.

- مين؟

- ...

تتّسع عيناه أكثر وهو يُدقِّق النظر، فلا يجد سوى باب الشقة المقابل، وفجأة تظهر يد أمامه لتطرق الباب بقوة، فينتفض للخلف ليسقط فزعًا على ظهره بقوة. يستند على مرفقيه وهو مُلقًى أرضًا.

- مين! مين برّه!

- افتح يا حازم... أنا فريدة.

- فريدة!

يقولها ثم يهب واقفًا ليفتح الباب، فتنطلق فريدة لتستقر بين ذراعيه.

- ما تسيبنيش يا حازم، ما تسيبنيش.

يربت على رأسها في رفق ويغلق الباب، ثم يصطحبها إلى الأريكة وهو يكفكف دمعها قائلًا:

- مالك! احكيلي إيه اللي حصل.

- ...

- ماما ومريم حصل لهم حاجة؟

تطأطئ رأسها وهي تنشج بهمس غير مفهوم.

- طيب خلاص، اهدي دلوقتي، بلاش تتكلمي.

يقولها ثم ينهض، فتتشبث يدها لتجذب يده. يلثم أناملها مُطمئنًا.

- ما تخافيش، أنا جاي.

يتوجّه مسرعًا لينتزع علبة عصير ويخرج كأسًا ليسكب فيه السائل الذهبي، ويعود ليجلس بجوارها. يُقرِّب حافة الكأس من شفتيها لتتذوّق منه القليل. دقائق حتى هدأت، فتمسك بالكأس وتضعه أمامها وتبدأ في الكلام:

- أنا ما بقيتش عارفة أعيش، أنا حاسّة إني اتجنّنت، رجعت تاني للمهدئات والمسكنات، حتى المنوّم ما بقاش يجيب نتيجة، ولو عرفت أنام بحلم بكوابيس وأحلام صعبة، ده غير... غير...

- غير إيه؟ احكيلي.

- الكلام اللي بصحى ألاقيه مكتوب كل يوم على الحيطة وعلى... جسمي.

جحظت عينا حازم وهو يبتعد عنها سنتيمترات.

- بيبقى مكتوب إيه على جسمك!

- كلام، كلام بالإنجليزي مش مفهوم، حروف مالهاش علاقة ببعض. كل يوم ألاقيها مكتوبة بالدم. أدخل آخد دُش وأمسحها علشان محدش يقول علي مجنونة.

ابتلعت ريقها وتصلّب وجهها، ثم لمعت عيناها وهي تستطرد:

- النهارده... دخلت أنام وصحيت على صوت صرخة مكتومة. عارف لما تصحى على صوت وتكتشف إن إنت صاحب الصوت ده؟ اكتشفت إن الصوت ده كان طالع مني وأنا نايمة. استعذت بالله من الشيطان وقمت دخلت الحمام أغسل وشي، وقفت قصاد المراية

أعدّل شعري وببص... لقيت... لقيت...

مدّت يدها لتحرّر الأزرار العلوية من قميصها، كاشفةً عن صدرٍ مكتوبٍ عليه بالإنجليزية: "باقي 13".

نظر لها حازم وقد تحجّرت عيناه في استنكار، لتخرج حشرجة:

- وده معناه إيه؟ وباقي...

قاطعه طرقٌ عنيف على باب المنزل. يهرع مسرعًا ويقبض على يد الباب ويديره ببطء لينفتح، ويظهر آخر شخص يمكن أن يتوقّع حازم رؤيته.

فريـــــــدة..

***

- اتفضل القهوة يا باشمهندس، من غير سكر زي ما طلبت.

قالها عم مصطفى وهو يربت على كتف حازم الذي غلبه النوم، لينهض الأخير مكشّرًا عن وجهه، يتلفّت حوله كالتائه، فاغر الفاه، ينقل بصره بين كوب القهوة ومصطفى الذي ظل يرمقه في شكٍّ.

- إنت شكلك ما نمتش كويس امبارح، أوعى يكون كلام الباشا المدير ضايقك، هو إنسان طيب، يطلع وينزل على مافيش، قوم كده يا باشمهندس اغسل وشك وفُق كده و...

يقاطعه هاني:

- روح إنت يا عم مصطفى، سيبهولي، أنا هافوّقه.

زاغت عينا حازم وهو ينظر إلى هاني وكأنه أدرك وجوده للتو.

- هو إيه اللي حصل؟

- ما حصلش حاجة يا سيدي، كنت بتكلمني وبعدين شتمتني ونمت، قوم يلا لما أوصّلك البيت، مش هاينفع أسيبك في الظروف دي.

انتفض كمن لدغه عقرب حين تذكّر تفاصيل غفوته الأخيرة.

- البيت!.. البيت لأ... مش عاوز أروح البيت تاني.

- مش عاوز تروح البيت تاني إزاي يعني؟!

ازدرد ريقه في تردد واضطراب قائلًا:

- قصدي يعني مش عايز أروح البيت دلوقتي، يا هاني، ممكن تودّيني أي مكان نقعد فيه ونشرب حاجة؟ مش عايز أروح يا هاني، مش عايز أروح.

***

ركبا معًا سيارة حازم لينطلق دون هدف، وهو يقود شارد الذهن، يندفع أحيانًا مسرعًا وأحيانًا أخرى على مهل، إلى أن قطع هاني صمته:

- مالك يا حازم؟.. أنا عارف طبعًا إجابة السؤال، لكن أقصد أقول.. ناوي على إيه؟ هتعمل إيه؟ الموضوع كل ما ده بيوسع ويزيد، لازم نلاقي حل للمشكلة دي، فريدة شوية شوية بتضيع من إيدينا، على حسب كلامك هي لا بقت بتاكل ولا بتشرب وخسّت قوي، حتى

إيريني لما بتتصل علشان تطمّن عليها ما بتردّش.

- يعني إنت شايف المفروض أعمل إيه؟

قالها بنفاد صبر، ليربت هاني على كتفه.

- تعالى نقعد مع الدكتور سليمان ده ونحاول نتكلم معاه لوحدنا، مع إني مش مقتنع بيه أصلًا، بس هنعمل إيه؟ نروح له نحاول نعرف ونفهم اللي بيحصل لها ده إيه سببه؟ وإيه علاجه؟

نظر إليه بيأس، دون أن يتفوّه بحرف، وبقوةٍ ما يفتعل داخله دهس دواسة الوقود ليتوجه إلى...

عيادة الدكتور سليمان حبيب.

***

- الحقيقة يا حازم، موضوع فريدة ده بالرغم من إنه مش جديد عليّ، لكنه محيّر جدًا.

رأى علامات الاستفهام على وجهيهما فأردف قائلًا:

- الإنسان اللي بيموت في ظروف غير طبيعية، زي واحد اتقتل بقسوة ووحشية وهو في قمة الخوف والفزع، بتبقى الروح ساعتها قلقانة ومش مستقرة، وبتفضل تايهة لحد ما تلاقي جسد مناسب ليها علشان تسكنه. وغالبًا الروح لما بتسكن جسد غريب ما بتبقاش عايزة تعلن عن وجودها، لإنها بتبقى زي التايه اللي لقى مأوى أو سكن ومش عايز يغادره، لكن اللي حصل مع حالة فريدة العكس؛ حسّيت إنها عايزة تعلن عن وجودها وبقوة كمان.

نظر حازم إلى هاني قبل أن يقول:

- طيب والروح دي نخرجها إزاي يعني؟

- مسألة نخرجها إزاي دي معتمدة على الساكن والمسكون.

- ...؟!

- على حسب قدرة الساكن على البقاء، وقدرة المسكون على الطرد.

- بمعنى؟!

- بمعنى إن في حالات بيبقى عندها إرادة وقوة تساعدها على طرد الروح الغريبة دي، وفي حالات تانية ضعيفة بتستسلم للأمر الواقع، ودي للأسف ما بيبقاش قدّامها غير حلّين.

- الأول!

- إنها تتعايش مع الوضع وتقبل وجود روح تانية ساكنة جواها، أو.....

- أو إيه؟

- ما تعرفش تتعايش، وفي الحالة دي ممكن تموت نفسها لمجرد إنها تتخلّص من الروح دي.

- هي فعلًا حاولت تنتحر قبل كده وقطعت شرايين إيديها، طيب يا دكتور حضرتك شايف إيه؟

- شايف إنها متعاونة معانا وبتحاول تساعدنا، وده ظهر في الجلسة اللي فاتت وإحنا بنحاول نعرف الروح دي عايزة إيه منها

بالظبط، لأن لو عرفنا ده هايسهّل علينا كتير.

- طب إحنا ودّيناها لشيخ وقرأ عليها قرآن ورقاها، لكن......

قاطعه قائلًا:

- هي مش ملبوسة بجن علشان نعمل كل ده، وللأسف عملية طرد الروح بتبقى أصعب بكتير من طرد الجن، بس فيه نقطة مهمّة.

قالها قبل أن يخلع نظارته ليضعها أمامه ثم يستطرد:

- كل ما فضلت الروح أطول في الجسد، كل ما بقى صعب علينا نخرجها، الروح بتبقى ليها فترة معيّنة قبل ما تسيطر على الجسد سيطرة كاملة، وساعتها بيبقى استحالة تغادره، إلا في حالة... موته.

- الفترة دي يعني قد إيه تقريبًا؟

- 113 يوم تقريبًا، ده المتوسط اللي اتفق عليه معظم الخبراء في المجال الروحي، هي الأعراض دي ظهرت عليها إمتى؟

- من يوم ما دخلت المستشفى.

قالها حازم وهو يحك شعره في محاولة لتذكّر تاريخ الحادثة.

- آه، افتكرت، كان يوم.........

بتر عبارته بغتة وهو يتذكّر الكابوس الذي راوده في أثناء غفوته بالمكتب، وبالتحديد الجزء المتعلّق بالمكتوب على صدر فريدة.

- باقي 13 يوم.

نظر له سليمان حبيب مشدوهًا قائلًا:

- لحقت تحسبها بالسرعة دي؟!

- إحنا لازم نلحق فريدة يا دكتور، لازم نلحقها قبل ما تضيع من بين إيدينا.

***

اليوم الأول

يغرز المحقن

ينساب السائل الأزرق

ينتزع المحقن

يضع الضمادة

يضغط عدة أزرار

تئز الكاميرات

ينطلق الشعاع الضوئي

تبدأ فريدة في العد

واحد، اثنان، ثلاثة...

ثم:

- بيـل.

- ...

- بيـــل.

- هل بحثتِ؟

- عن ماذا أبحث؟ أرجوكِ غادري هذا الجسد بسلام.

- أنتَ تـ. حـ. لـ. م.

قالتها بحشرجة أفزعت كل من سمعها، قبل أن تردف:

- مستحيل أن أغادر قبل أن أثبت براءتي.

- براءتكِ من ماذا؟

- من الخزي والعار.

- كيف يمكن أن نساعدك؟ أخبرينا.

بعد برهة:

- سأخبركم.

***

28 إبريل 1908

تلك الليلة، بينما السكون والظلام يعم المكان، كنت نائمة مع بناتي لوسي وميرتل، أحتضن صغيري فليب بينما (لامفر) يغط في نوم عميق في الحجرة التي أعِدّت من أجله. لم نكن نسمع تلك الخطوات بالخارج وهي تمشي ببطء، خطوات لسيدة أربعينية شقراء كانت يومًا ما زوجة للرجل الممدد في الحجرة المجاورة، جاءت محملة بالغل والكره والانتقام، تمشي بتحفّز ورعب في الوقت ذاته. يهشم صوت دهس العشب تحت قدميها أذنها وهي تقترب من إحدى

النوافذ لتطل من خلاله على زوجها السابق (لامفر). تنظر والدمع يفر من عينيها وهي تتذكر لحظات السعادة بينهما في الماضي، وكيف هجرها وسحق قلبها الملتاع. ترى ضوءًا خافتًا يتسلل من إحدى النوافذ الأخرى لتجفل قبل أن تقترب بهدوء وتلقي نظرة أخرى لتجد طفلتين يغطّان في نوم عميق، وعلى الفراش المقابل سيدة تحتضن طفلًا رضيعًا. يزداد انهمار دموعها أكثر، ويعلو صوت اصطكاك أسنانها غلًا وكرهًا، والأفكار تُفجّر رأسها:

(أنتِ إذًا! أنتِ من سلبتني حبيبي ومعه روحي، لن أقبل سوى روحك ثمنًا جراء فعلتك أيتها العاهرة، سأقتلك مائة مرة، وستعذبين آلاف المرات).

تتحسس سكينًا بين طيات ملابسها وهي تتسلل داخل المنزل من فتحة خلفية لتجد نفسها بمنتصف الردهة، تقف بعيون جاحظة مشتعلة بنار الغضب والانتقام. يسيطر الشيطان على عقلها رويدًا رويدًا، وهي تتلفت حولها بحثًا عن شيءٍ ما، حتى وقعت عيناها على مبتغاها ليظهر شبح ابتسامة على شفتيها. تقترب من إحدى الرفوف موضوع عليها قارورة تمتلئ بوقود يستخدم في مصابيح الإضاءة، تنثر سائله بين أرجاء المنزل ثم تدخل إلى حجرة الأطفال وتفعل كما فعلت خارجها. كنت نائمة إلى أن شعرت بلهيب أنفاسها تلفح وجهي. فتحت عيني لأجدها تقبض على رقبتي وفي عينيها جنون وغضب. حاولت بكل فزع ورعب أن أقاوم، ولكن الشيطان قد استحوذ على قوتها وهي تعتصر رقبتي، وليتها اكتفت... استلت سكينها لتذبحني بلا شفقة أو رحمة، لأراها بعيني رأسي المقطوع وهي تشعل ثقابًا يلمع وهجه في عينيها وابتسامتها الشيطانية، قبل أن تتركه يسقط

ليحتضن السائل المسكوب، وتعلو صرخات أبنائي الفزعة بين ألسنة النار الموقدة.

***

اليوم الثاني

عزيزي سبيستيان

مر وقت طويل منذ آخر اتصال بيننا... أرجو أن تكون بخير وبصحة جيدة. أعلم أنك تتساءل عن سبب مراسلتي لك بعد كل هذا الوقت. تقابلنا منذ عدة سنوات في ظروف عمل جمعت بيننا ولمدة ثلاثة أشهر.

هل تتذكر حازم، المهندس المصري بشركة (إيجيترول) الذي استضفته طوال فترة إقامته بمنزلك الموقر؟ وهل ما زلت تكره استخدام وسائل التواصل الحديثة؟

إن كنت قد نسيت شخصي، فلن أنسى أبدًا كرمك وحسن ضيافتك معي من قبل. استعنت بعنوان بريدك الإلكتروني من أرشيف الشركة، وآمل ألا تكون قد استبدلته بآخر. وفي لقائنا الأخير، وأنت تودعني بمطار (بالتيمور)، طلبت أن أبقى على اتصال دائم معك وألا أتردد في الرجوع إليك إذا احتجت إلى شيء...

ها أنا يا عزيزي أخبرك أنه قد حانت لحظة حاجتي. أنتظر منك ردًا سريعًا على هذه الرسالة لأرسل إليك المزيد من التفاصيل.

لك تحياتي،

حازم عبد الرحمن

***

عزيزي حازم

كيف حالك؟ هل تزوجت أم ما زلت رافضًا لتلك الفكرة؟

بالطبع أذكرك... كيف أنسى أحب المصريين إلى قلبي؟ سعدت جدًا برسالتك الأخيرة، وقلقت قليلًا. أرجو أن تكون بخير. أخبرني كيف يمكنني مساعدتك؟ أنا في خدمتك دائمًا.

المخلص لك،

سبيستيان

***

ساحر الكتب

عزيزي سبيستيان

أتمنى أن تكون بخير... أنا بصحة جيدة، وبالفعل غيرت وجهة نظري، وكان من المفترض أن أتزوج قريبًا، لكن المشكلة التي أنا بصددها حاليًا يطول شرحها، لذا سأختصر عليك قدر الإمكان. أريد أكبر قدر ممكن من المعلومات عن شخصية تُدعى "بيل جانيس". لا أعرف عنها سوى تاريخ ميلادها "22 نوفمبر 1859"، وبعض أسماء أشخاص عاشوا حولها وتزوجت بعضهم، أمثال (مادز سورينسون، بيتر جانيس، راي لامفر). وهي نرويجية الأصل وعاشت في شيكاغو، حتى توفيت على الأرجح "يوم 28 إبريل 1908 في حادث حريق".

هذا كل ما أعرفه عنها، وأعلم طبعًا أنه بتلك المعلومات القليلة تبحث عن سمكة وسط محيط، لكني أعرفك جيدًا وأعرف مدى تعاونك وفضلك. أنتظر ردك على أحر من الجمر.

صديقك،

حازم عبد الرحمن

***

عزيزي حازم

بعد التحية ...

لن أسألك بالطبع عن كنه المشكلة التي تواجهك وتتعلق بسيدة ولدت عام 1859، لكن أعدك أن أبذل قصارى جهدي لجمع أكبر قدرٍ متاحٍ من المعلومات عنها.

لك تحياتي،

المخلص لك،

سبيستيان

***

اليوم الثالث

- ورد عليك؟

- لأ، لسه... ومعتقدش هيرد.

قالها حازم وهو يجلس على مكتبه بالشركة ويرتشف قدحًا من

القهوة.

- ليه بتقول كده؟

- هيرد على إيه يا هاني؟ إنت عارف في كام ألف واحدة اسمها "بيل جانيس" عاشت في أمريكا؟

- أيوة، أنا معاك، بس صعب تلاقي التركيبة دي من الأسماء مع تاريخ ميلادها، غير لحد واحد بس.

- أه، ده لو لقينا أساسًا، إحنا مش بنتكلم عن واحدة كانت عايشة من عشرة أو عشرين سنة، دي واحدة اتولدت 1859، يعني من أكتر من 150 سنة يا هاني.

- يا بني، إنت فاكر عندهم سجل مدني زي بتاعنا كده؟ ممكن تروح تطلع شهادة وفاة لنفسك بخمسة وعشرين جنيه؟! الموضوع هناك شغال إلكتروني ومنظم بطريقة لا يمكن تتخيلها، بس هو متوقف على مين اللي في إيده السلطة يدخل ويكشف عن بيانات مواطنة؟ معتقدش الموضوع ده سهل هناك، لكنه مش مستحيل.

- معرفش بقى، لما نشوف.

تم حازم جملته الأخيرة ليهتز هاتفه معلنًا عن اتصال.

- ألو؟

- مساء الخير أستاذ حازم.

- مساء النور، مين؟

- أنا أسماء، زميلة فريدة في الشغل.

- آه، أهلًا وسهلًا، أؤمري.

- كانت فريدة قبل ما تاخد الأجازة المفتوحة بتاعتها سايبة رقم حضرتك في حالة لو احتاجنا حاجة.

- تمام، أؤمري.

- إحنا بس عايزين الكاميرا بتاعتها علشان نفرغ الصور اللي عليها، محتاجينها فـ......

أنهى حازم المكالمة ليبتر حديث المتصلة، ثم هب واقفًا وهو يلتقط نظارته ومتعلقاته ويغادر المكتب مسرعًا، ليتبعه هاني المذهول وهو يلهث محاولًا اللحاق به.

- حازم! مالك في إيه؟!

***

يضغط حازم على مكابح السيارة لتصدر صرخة عنيفة، ثم يغادرها مسرعًا وهو يبتلع درجات السلم بقدميه إلى أن وصل إلى شقة فريدة، ليطرق الجرس عدة مرات قبل أن تفتح والدتها في فزع.

- أيوة يا حازم، في إيه؟

- فين شنطة فريدة؟

- شنطة إيه يا بني؟

صارخًا: الشنطة اللي كان فيها هدومها ومتعلقاتها يوم الحادثة.

- موجودة يا بني، مالك في إيه؟ تعالى اتفضل.

حاول السيطرة على مخرجات كلماته وهو يقول:

- مفيش حاجة، ما تقلقيش، بس كنت محتاج أشوف حاجة.

غابت دقائق قبل أن تعود بالحقيبة.

- الشنطة زي ما هي بقفلتها، ما اتفتحتش من يوم الحادثة، ما حبتش أخليها تشوف حاجة تفكرها بـ...

انتزع منها الحقيبة لتبلع جملتها الأخيرة في خوف من ردة فعله. فتح حازم الشنطة ليقلبها رأسًا على عقب، فتسقط محتوياتها أرضًا: ملابس داخلية وخارجية، وساعة يد، وغطاء للرأس، وكاميرا، وسلسلة، و...

خاتم!

خاتم فيروزي ذو نقوش متوازية حفر بباطنه كلمة "Belle".

- إيه ده؟!

- معرفش يا بني والله، أنا لقيته وسط حاجتها يوم الحادثة. افتكرتك اشتريتهولها لما كنتم في المتحف، بس الغريبة لقيته واسع على صباع فريدة.

دس الخاتم في جيبه والتقط الكاميرا وغادر مسرعًا دون كلمة إضافية.

***

في غرفة شبه مظلمة، باستثناء إضاءة خافتة جدًا، أخرج الدكتور سليمان وحدة التخزين بالكاميرا قبل أن يدسها في إحدى الأجهزة

الخاصة بالعرض أمامه، تشبه إلى حد كبير تلك التي نراها في معامل تحميض الصور، لتبدأ شاشته المسطحة في عرض محتوياتها.

الصورة الأولى تظهر حازم وهو يقود السيارة ملتفتًا يمينًا في مواجهة الكاميرا، يبدو أنه تم التقاطها وهما في طريقهما إلى المتحف. يضغط أحد أزرار وحدة التحكم بيده لتنزاح الصورة وتفسح المجال لأخرى، صورة لمسجد جامع بن طولون في الخارج يليها عدة صور لمعالمه من الداخل. تتوالى الصور حتى تظهر اللقطات الخاصة بمتحف جاير آندرسون أو بيت الكريتلية كما كان يُطلق عليه، صور لغرف نوم ومكاتب ومفاتيح ولوحات وماسكات، إلى أن وصل لصورة تخص فريدة وهي تقف مستندة على البئر، تبتسم في رقة ودلال، تضع يدها اليمنى فوق اليسرى تارة وعلى خصرها تارة أخرى. صورة أخرى وهي تشير لأحدهم لكي يأتي ويشاركها التصوير، ثم...

عدة صور متتابعة كفيلم كرتوني قديم، لفريدة وهي تحاول التسلق بظهرها للجلوس على البئر، ثم اختلال توازنها وهي جاحظة العينين لتسقط في البئر، ثم يختفي المشهد ليظهر ظهر حازم وهو يركض مبتعدًا عن الكاميرا محاولًا اللحاق بها وإنقاذها.

يوقف دكتور سليمان العرض، ثم يضغط على عدة أزرار مختلفة ليعيد عرض الصور مرة أخرى، ولكن ليست بالشكل المعتاد؛ تظهر اللقطات بهيئة أقرب إلى نيجاتيف الأفلام القديمة، ليس بالأبيض والأسود، ولكن بالأزرق والأخضر هذه المرة، تتتابع الصور مرة أخرى لتظهر الأشخاص باللون الأخضر وما عدا ذلك يظهر باللون الأزرق.

يزداد تحفز سليمان مع اللقطات الخاصة بفريدة أمام البئر، يضغط زرًا فيبطئ العرض وهو يتابع مضيقًا عينيه في تركيز شديد، إلى أن يثبت لقطة وهي تسقط في البئر، ويقترب من الشاشة مشيرًا إلى أعلى كتف فريدة الأيمن حيث تظهر كتلة حمراء اللون، فيلتصق بالشاشة أكثر مستوضحًا معالم تلك الكتلة التي تشبه إلى حد كبير يد...

يد ويسكن ببنصره خاتم يستقر الآن في...

جيب حازم.

***

عزيزي حازم،

كيف حالك؟ للأسف لم أستطع التوصل إلى أي معلومات تخص من تدعى "بيل جانيس" تلك، لكن لا تفقد الأمل أرجوك، أمهلني 24 ساعة حتى عودة جاكوب زوج ابنتي من معسكر التخييم، ومؤكد سنجد المساعدة من طرفه فهو يعمل بإدارة التوثيق الأمريكية.

المخلص لك،

سبيستيان

***

- يعني إيه يا دكتور اللي شوفناه ده؟

- اللي ظهر باللون الأحمر ده إيد تخص روح.

- روح بيل؟

- مش مؤكد، بس واضح أن فريدة ما وقعتش، الصور بتقول إنها اتشدت.

- على فرض إنها بيل، وصلت إزاي للمكان ده؟!

***

يغرز المحقن،

ينساب السائل الأزرق،

ينتزع المحقن،

يضع الضمادة،

يضغط عدة أزرار،

تئز الكاميرا،

ينطلق الشعاع الضوئي.

تبدأ فريدة العد: 1، 2، 3،........

- بيل؟

- ...

- هل أنتِ موجودة بيل؟

- ...

ساعة كاملة مرت في انتظار رد فعل أو استجابة كما حدث من قبل، ولكن لم يحدث.

- ليه ما فيش استجابة يادكتور؟!

- إحنا كل اللي بنعمله بنهيأ للروح الجو المناسب للحضور، لكن ما نقدرش نجبرها على الحضور، في فرق.

- بمعنى؟!

- بمعنى أنها ما عندهاش رغبة في التواصل حاليًا.

- طب الأيام بتجري والوقت بيهرب من بين إيدينا.

صمت حازم قليلًا قبل أن يردف:

- على فرض أنها استمرت في الصمت وعدم التواصل معنا، هنعمل إيه؟!

- هنجرب تاني في جلسات ثانية ومش هنيأس.

- طب ممكن ننتظر ساعة أو اتنين ونكرر.....

قاطعه:

- ما نقدرش نعمل جلسة تانية قبل 48 ساعة لأن ده فيه خطر على فريدة.

- طب والحل؟!

قالها بانفعال وغضب، ليجيبه بهدوء:

- للأسف ما فيش قدامنا غير الانتظار.

***

- ألو، إزيك؟

- أيوة يا حازم، عامل إيه إنهـ...

- هاني، هات عم مصطفى وتعالالي البيت دلوقتي.

- في حاجة ولا إيه؟ طمني.

- لما تيجوا هتعرفوا.

- نيجي فين يا حازم؟ انت عارف الساعة كام؟

- عدي على مصطفى هاته وتعالى.

قالها بلهجة قوية لم تترك مجالًا للاعتراض، ثم أغلق الخط.

***

يصعد هاني درجات السلم بأطراف أصابعه، ويتبعه مصطفى محاولًا اللحاق به، ويبدو عليهما أمارات الارتباك. يصلا إلى الشقة، فينقر هاني الباب قبل أن يفتح بعنف كاشفًا عن حازم، منكوش الشعر، بذقن نامية، وعينان حمراوان من قلة النوم. دون أن يأذن لهما، دخلا ليغلق مصطفى الباب خلفه.

- بالتربـاس.

قالها حازم ودلف، لينظر مصطفى إلى هاني الذي أشار له بتنفيذ الأمر ففعل:

- تعالوا هنا.

تتبعا مصدر الصوت المنبعث من إحدى الحجرات الجانبية ذات

البوابة الزجاجية المزركشة، يفتح هاني الباب ليتخشب كجثة محنطة، ومن خلفه مصطفى وقد فغر فاه وبرزت عيناه من محجريهما من أثر ما رأى، حجرة تبدو أنها كانت يومًا ما حجرة استقبال زائرين. وقد كوم حازم أثاثها جانبًا وأزال سجاد الأرضية لتصبح عارية تمامًا، ورسم دائرة مقسمة إلى ثلاث أجزاء مثبت على رأس كل نقطة تلاقي للخط مع الدائرة شمعة حمراء، وكذلك على نقطة منتصف قطر الدائرة شمعة سوداء، ثم ثبت أمامها مرآة إطارها من خشب الأبنوس ليجلس أمامها ممسكًا مجلدًا ذو غلاف سميك مهترئ وصفحات صفراء ذابلة، ثم أشار لهما بالجلوس حول الدائرة، فاستجاب مصطفى دون نقاش، بينما جاهد هاني ليتمكن من الجلوس بجسده الممتلئ، ثم استرق نظرة للمكتوب على الغلاف ليقرأ عنوانه: "كشف الجماح في تحضير الأرواح" لأبي حر بن ورد القيتواني.

بدأ حازم في إشعال الشموع من اليسار إلى اليمين، ثم أشعل شمعة المنتصف السوداء بعود ثقاب ملطخ بسائل أحمر، لو نظرنا إلى ذلك الجرح القاطن برسغ حازم لعرفنا كنه هذا السائل. انتهى من إشعال الشمعة الأخيرة قبل أن يحرص على وضع عود الثقاب الأحمر بزاوية عمودية عليها، أمسك بهاتفه المحمول ثم طلب من أحدهم:

- ألو، إزيك يا دكتور، أنا عرفت أوصل لكتاب من كتب تحضير الأرواح، قريته على النت وجبته من واحد بيبيع الكتب دي، أيوة تحضير أر... اسمعني أرجوك، معنديش وقت للكلام ده، عايز حضرتك توعدني لو حصللي حاجة ما تتخلاش عن فريدة وتخليها معاك وتساعدها لحد ما ترجع إنسانة طبيعية مرة تانية.

في سكون المكان، تسلل صوت مكتوم للدكتور سليمان من الهاتف صائحًا:

- الكتب دي ماينفعش أي حد يستخدمها يا حازم، أنا بحذرك من الخطر اللي ممكن....

أنهى حازم الاتصال ليلقي بالهاتف جانبًا بعد أن أوقفه عن العمل نهائيًا، ثم نظر للعيون الشاخصة أمامه في رعب، قبل أن يقول مصطفى:

- طب معلش يا باشمهندس أستأذن أنا علشان......

- ما بقاش ينفع يا عم مصطفى، للأسف ما قداميش حد غيركم يساعدني في اللي هاعمله.

- بس يا باشمهندس......

- هششش.

فتح المجلد على إحدى الصفحات مثنية الطرف مسبقًا ليغمض عينيه، وهو يسحب أكبر قدر من الهواء ويكتمه قليلًا قبل أن يزفره بهدوء، ثم يفتح عينيه مرة أخرى:

- غمضوا عينيكم، وأيًا كان اللي هايحصل ما تفتحوهاش.

فعلًا، ما طلب منهما بأجسام مرتعشة. نظر حازم على الوضع كمراجعة أخيرة كما أخبره من أعطاه المجلد، ثم أخرج الخاتم من جيبه ليضمه بقبضة يده اليمنى، ثم شرع في القراءة:

- بحق سمسون ابن منذر حماه،

أحضر وتحضرون،

روح بذكر اسم مسجون،

بالسكن المسكون،

فارق بين اللام والنون.

هنا انطفأت الشمعة الحمراء الأولى، لينطق حازم:

- بيل جانيس.

فتنطفئ الشمعة الحمراء الثانية:

- بيل جانيس.

فتنطفئ الشمعة الحمراء الثالثة:

- بيل جانيس.

فتنطفئ الشمعة السوداء والأخيرة، ويظلم المكان.

***

اليومُ الرابع

عزيزِي حازم،

بعدَ التحيّة،

طلبَ منّي سبيستيان التواصلَ معك لمدّك بالمعلوماتِ الممكنةِ حولَ من تُدعى "بيل جانيس"، وأرجو ألّا أكونَ قد أخطأتُ في الاسم.

في البداية، دعني أسألك: هل أنت بصددِ عملِ بحثٍ أو دراسةٍ عن تاريخِ أبشعِ القتلةِ أو المجرمين؟!

لو كانت الإجابةُ بنعم... فابشر، فقد وُفِّقتَ في اختيارِ صاحبةِ الاسم.

إليكَ حسابي الشخصي على الـ

Skype

، ويمكننا التواصلُ بعد ساعتين من الآن لإخبارِكَ بكل المعلوماتِ المتاحةِ عنها:

jakob.wilson

تحيّاتي،

جاكوب ويلسون

***

- عزيزِي جاكوب، كيف حالك؟

- أنا بخير، وكل شيءٍ على ما يرام، كيف حالك أنت؟

- بخير، وأود أن أشكرَكَ على المساعدة.

- لا داعيَ للشكر، أخبرني أولًا: هل الصوتُ واضحٌ ونقيٌّ؟

- نعم، الصوتُ على ما يرام، هل لكَ أن تخبرني بكل ما يخص من تُدعى "بيل جانيس"؟

- بالفعل، كما أرسلتَ أنتَ من قبل، هي سيدةٌ نرويجيةُ الأصل،

وُلِدَت عام 1859، أمّا عن تاريخِ وفاتها فغيرُ معلومٍ حتى لحظتنا الحالية. لُقِّبَت بـ"ليتال جانيس"، وكلمة "ليتال" بالنرويجية تعني (القاتلة)، وهي بالفعل قاتلةٌ لم يعرفْ قلبُها الرحمة؛ كانت تستمتعُ بتشريحِ وتقطيعِ جثثِ ضحاياها، ورمي أشلائِهم إلى الخنازيرِ الجائعة لتلتهمها، وكل هذا من أجلِ المالِ الذي كانت تعشقه بجنون، إلى الحد الذي لم تُبالِ فيه يومًا بقتلِ أطفالِها من أجله.

- قتلَت أطفالَها؟!

- نعم، تلك السيدة تحوّلت حياتُها، وكذلك موتُها، إلى لغزٍ غامضٍ حيّرَ المحققين والباحثين لعقودٍ طويلة، لتصبحَ أسطورةً تحتل مكانَها بجدارةٍ بين أشهرِ القتلةِ والمجرمين في التاريخ.

- حدِّثني عن نشأتِها منذ أن وُلِدَت.

- نعم، وُلِدَت لعائلةٍ مكوّنةٍ من أبٍ وأم وثمانيةِ أطفال، ولا يُعرَف عن طفولتِها الكثير، لكن ذكرتْ إحدى الصحفِ النرويجية أنها تعرّضت في ريعانِ شبابِها لحادثٍ كان له أثرٌ كبيرٌ في صياغةِ شخصيتِها القاسية؛ فبينما كانت في إحدى المناسبات، وهي حامل، تعرّضت لاعتداءٍ من شخصٍ ضربَها بقسوةٍ على بطنِها ليُجهِض طفلَها، ومنذ ذلك الحادث اتّفقَ كل من عرفَها على أن شخصيتَها تبدّلت بشكلٍ كبيرٍ وملحوظ، وكان هذا سببًا رئيسيًا لإصرارِها على الهجرةِ إلى أمريكا، ومن أجلِ ذلك عملت في إحدى المزارع ولمدةِ ثلاثِ سنواتٍ كاملة لتجمعَ ثمنَ تكلفةِ سفرِها. عامَ 1881 تحقّق حلمُها، ووصلت إلى أمريكا لتعيشَ مع أختِها التي كانت قد سبقتْها بالهجرة، وكانت تُشبهُها إلى حد كبير، وكانت تصفُها دائمًا قائلة: (بيل

كانت مهووسةً بجمعِ المال، وكان نقطةَ ضعفِها الرئيسية). أمّا عن "مادز سورينسون"، صاحبِ متجرِ حلوياتٍ بشيكاغو، فقد تزوّجَ "بيل جانيس" بالفعل عام 1884، إلّا أن المتجرَ فجأةً، ودون سابقِ إنذار، احترقَ بعد عدةِ أشهرٍ من تلك الزيجة، ادّعت بيل أن النارَ اشتعلت نتيجةَ انفجارِ مصباحٍ نفطيٍّ، ورغم أنه لم يُعثَر أبدًا على أي أثرٍ لهذا المصباحِ المزعوم، إلّا أن بيل استلمت قيمةَ التأمينِ على المتجر كاملةً دون نقصان، لتشتريَ بهذا المبلغِ أحدَ المنازل، الذي سرعان ما احترق هو الآخر، لتستلمَ مبلغَ التأمينِ عليه هو أيضًا، وتشتريَ منزلًا آخر.

- إلى تلك الدرجة كانت تعشقُ المال؟!

- لا تُقاطعني حتى لا أنسى أي تفصيلةٍ ذُكِرَت بسجلّها.

- عفوًا، أكمِل من فضلك.

- رُزِقَت من "مادز سورينسون" بأربعِ بنات، توفّت اثنتانِ منهن بعد إصابتهن بحمّى مفاجئةٍ وقيءٍ وعلاماتِ تسمُّمٍ واضحة.

- سمّمتهُنّ؟!

- غيرُ مؤكّد، لكنها استلمت مبلغًا كبيرًا من شركاتِ التأمين، لأن الطفلتين كانتا مؤمّنًا على حياتِهما، ثم عامَ 1900 مات زوجُها فجأةً.

- وبالطبع كان مؤمّنًا على حياتِه؟

- بالضبط، وبالرغم من أن العديدَ من أقاربِه أصرُّوا على أن وفاتَه لم تكن طبيعية، إلّا أن التقريرَ الطبي النهائي أفادَ العكس، لتستلمَ بيل جانيس مبلغًا كبيرًا يُعادِل ثروةً في ذلك الوقت، لتشتريَ به

مزرعةً في منطقةِ لابورتِي بولايةِ إنديانا، لتنتقلَ وتعيشَ فيها مع ابنتيها (لوسي) و(ميرتل) عامَ 1902. هنا حان دورُ "بيتر جانيس"، المهاجرِ النرويجي الذي تزوّجته بيل لتحملَ لقبَه فيما بعد، وكان لديه طفلتان، وبعد أسبوعٍ واحدٍ فقط من زواجِهما... خمِّن ماذا حدث لإحدى الطفلتين؟

- ماتت بالتأكيد.

- أحسنت، ليلحقَ بيتر جانيس بابنتِه بعد عدةِ شهورٍ من موتِها؛ مات نتيجةَ تعرُّضِه لحادثٍ مروِّع، فحسب ادعاءِ بيل، فإن آلةً معدنيةً ضخمةً سقطت على رأسِه عَرَضًا من أحد الرفوف لتحطِّمَ جمجمتَه.

- وأفلَتَت بفعلتِها كالمعتاد؟!

- ليس بالضبط، لم يُصدِّق أحدٌ روايةَ بيل تلك المرة، وأسفرت نتيجةُ التحقيق عن أن الحادثَ جريمةُ قتل، واتُّهِمَت بيل بتدبيرِه، ولتؤكِّدَ جيني، الابنةُ الكبرى لبيتر، أنها رأت زوجةَ أبيها وهي تهوي على رأسِه بالساطور ليموتَ في الحال، لكن بالطبع سنُّها لم يكن يسمحُ بالشهادة، لتنجوَ بيل تلك المرة أيضًا من جريمتِها، ولا سيَّما بعد اكتشافِ حملِها بطفلٍ من زوجِها، لتسمِّيَه "فليب"، وبعد إطلاقِ سراحِها وإسقاطِ التهمةِ عنها بعدةِ أسابيع اختفت جـ......

- جيني! الشاهدةُ الوحيدةُ على جريمتِها.

- بالفعل.

قالها جاكوب ثم صمتَ قليلًا، لتظهرَ في إطارِ المحادثة صورةٌ

فوتوغرافيةٌ بالأبيضِ والأسود، فيضغطُ حازم بمؤشرِ الفأرةِ عليها لتتضحَ معالمُها أكثر؛ الصورةُ عبارةٌ عن خبرٍ من جريدةٍ قديمة مكتوبٍ فيه:

(امرأةٌ جميلةٌ تملك مزرعةً كبيرةً في واحدةٍ من أفضلِ مناطقِ ريفِ لابورتِي، إنديانا، ترغبُ بالتعرُّفِ على سيِّدٍ محترمٍ يكونُ مساويًا لها في المقام، ولديه استعدادٌ لدمجِ ثروتَيهما، لن تقبلَ أي رسالةٍ ما لم يكنِ المُرسِلُ مستعدًا للقيامِ بزيارةٍ شخصيةٍ بعد الرد... هذا الإعلانُ للجادين فقط).

انتهى حازم من قراءةِ الرسالة ليعلِّقَ جاكوب قائلًا:

- تلك صورةٌ توثيقيةٌ للإعلان الذي نشرته بيل في إحدى الجرائد تطلبُ شركاء، وكانت تلك هي وسيلتَها لاستدراجِ مزيدٍ من ضحاياها، وبالفعل بدأ الرجالُ يتوافدون من كل حدبٍ وصوبٍ نحو مزرعةِ "بيل جانيس"، كان أغلبُهم طامعًا بثروةِ الأرملةِ الجميلة، وهم يظنُّون أنهم قد وقعوا على صيدٍ سهلٍ وغنيمةٍ مباحة، ولكن لم يَدُر بخلدِهم أنهم أصبحوا هم الصيدَ والغنيمة، ولم يكونوا يعلمون أنهم لن يغادروا هذه المزرعةَ أحياء، كان جميعُهم من ميسوري الحال، وأغلبُهم جلبوا معهم كل ثرواتِهم... كانوا جميعًا يختفون بعد أقل من أسبوع على تواجدهم بالمزرعة، ولم يرهم أحد بعد ذلك، ومع ازدياد عدد المختفين في المزرعة بدأت الشكوك تحوم حول بيل جانيس، وبدأ الكثير من أقارب الضحايا بالبحث عنهم، وكانت بيل تخبرهم بأنهم غادروا مزرعتها وأنها لا تعلم شيئًا عنهم. واجهت بيل مشكلة في هذه الأثناء كانت بمثابة بداية النهاية لها.

- أية مشكلة؟

- (راي لامفر).

- نعم، حدثني عن هذا الشخص بالتفصيل من فضلك.

أعلنت الشاشة عن وصول صورة أخرى ليفتحها حازم، ويرى (راي لامفر) كما وصفته بيل بالضبط، بعينيه وشعره الناعم وشاربه الكث.

- وكما ترى، هذا الوسيم استأجرته بيل للعمل بالمزرعة ومساعدتها، ولكي تضمن ولاءه حال افتضاح أمرها، أوهمته بالحب ليقع في براثن قبضتها. هام بها حبًا وعشقًا حتى جاء اليوم الذي تملكت فيه الغيرة قلبه وعقله، ليهددها بفضح أمرها إذا لم تكف عن اجتذاب المزيد من الرجال. فكرت بيل كثيرًا قبل أن تستقر على خطة هي الأدهى من نوعها...

أرسلت رسالة باسم مستعار إلى "بريدجيت" زوجة (لامفر) تطلب منها الحضور بعد منتصف الليل لمفاجأة زوجها وهو بأحضان امرأة أخرى، وبالفعل حضرت بريدجيت لتسقط في الفخ المنصوب لها، لتضربها بيل بساطور ضخم كما كانت تفعل عادة مع ضحاياها، ولم تكتفِ بهذا، بل رفعت الساطور لأعلى ثم انهالت على عنق المسكينة لتفصل رأسها عن جسدها، ثم ألقت الرأس للخنازير ليلتهموه عن آخره، قبل أن تغرق جسد أبنائها الثلاثة بالنفط وتشعل النار وتحرقهم أحياء، ثم تهرب هاربة.

عند تلك اللحظة، لم يتمالك حازم أعصابه، ليهب مسرعًا إلى دورة المياه ويفرغ معدته اشمئزازًا مما سمع، وفِي تلك الأثناء،

أعلن الحاسوب عن وصول صورة أخرى لامرأة تجلس وتضع على رجلها اليمنى طفلًا، ويقف بجانبها طفلتان، ومكتوب أسفل الصورة بالإنجليزية: (آخر صورة تم التقاطها لبيل وأبنائها بالترتيب: فليب الذي يجلس على قدمها، وتقف بجانبها لوسي وميرتل).

يعود حازم من دورة المياه ليرى الصورة المعروضة لبيل، فينظر إليها طويلًا؛ امرأة تبدو طويلة القامة بالرغم من جلوسها على كرسي أثناء التقاط الصورة، قسمات وجهها تفيض قسوة ووحشية، هيئتها إجمالًا تبعث بداخلك مزيجًا كريهًا من الرعب والتوتر.

- عزيزي حازم، هل ما زلت معي؟

- نعم سيد جاكوب، معك، ولكن هيئتها أصابتني بانقباض في صدري.

- أعذرك، وأتفق معك بشدة، فهي تبدو كشيطانة عادت من الجحيم لتوها. بالطبع، هي فعلت كل ما سبق لعدة أهداف، أولها إيهام جهة التحقيق بموتها للكف عن البحث عنها، ولتوجيه أصابع الاتهام بقتلها وحرق أبنائها إلى الناجي الوحيد (راي لامفر). وبالفعل بدأ المحققون بالتفتيش والحفر في أرجاء المزرعة، وبدأت الجثث تظهر الواحدة تلو الأخرى. عثر المحققون على بقايا 40 جثة لرجال وأطفال، وتم القبض على (لامفر) لاتهامه بقتل بيل جانيس وأطفالها الثلاثة، وحُكم عليه بالسجن لمدة عشرين عامًا، لم يقض منها سوى عام واحد إذ سرعان ما أصابه المرض ومات بالسجن عام 1909. لم يتبق سوى أن أخبرك شيئًا ما.

- تفضل.

- في عام 1910، تقدم أحد القساوسة إلى المحكمة ليشهد بما أخبره به (راي لامفر) بينما كان يحتضر في السجن، وفي اعترافاته تلك كشف (لامفر) عن جميع جرائم بيل، حيث أقسم على أنها كانت تقوم بتوفير سكن مريح وطعام شهي والكثير من الإغراءات لكل رجل يحضر إلى مزرعتها، ثم تقوم بتخديره بواسطة فنجان قهوة، وبعدها تحطيم رأسه بالساطور. وأحيانًا كانت تنتظر حتى ينام الضيف، ثم تدخل غرفته خلسة وبيدها شمعة وتخدره بمادة الكلوروفورم، ثم تقوم بتقطيع الجسد، حيث إنها اكتسبت خبرة التقطيع والتشريح من زوجها الثاني الذي كان يعمل قصابًا. وكانت تحرص في أثناء عملية التشريح على غناء ترتيلة دينية اسمها Oh Death كانت تحفظها منذ صغرها، تعتقد بأنها تكفر عن جرائمها. أحيانًا كانت تقوم بدفن البقايا في الحظيرة وأجزاء أخرى في المزرعة، وأحيانًا كانت تقدم البقايا للخنازير الجائعة لتلتهمها. اعترف (لامفر) بأنه كان يساعدها فقط، لكنه لم يلوث يده بالدماء في أية مرة، وأخبر القس أيضًا أن المرأة مقطوعة الرأس هي زوجته، وظل يقسم مئات المرات وهو يحتضر أن بيل ما زالت على قيد الحياة.

- إذًا أين ذهبت بيل بعد ذلك؟

- لعقود طويلة كانت هناك الكثير من التقارير عن مشاهدة بيل من قِبَل بعض الأصدقاء والمعارف، أقسموا إنهم رأوها في شيكاغو ونيويورك ولوس أنجلوس وسان فرانسيسكو، وكانت تستخدم اسم "إيستر كارلسون"، لكن كل هذا ليس مؤكدًا تمامًا.

سكت برهة قبل أن يستطرد بصوت يكسوه الإرهاق:

- هذا كل ما ذكر بالتقارير الرسمية وغير الرسمية عن حياة بيل جانيس، أرجو أن أكون قد وُفّقت في مساعدتك.

- أعجز عن شكرك وأقدر لك مجهودك سيد جاكوب.

- في خدمتك دائمًا سيد حازم، تحياتي لك.

أنهى المحادثة، ليترك حازم غارقًا في مزيج من الخوف والتساؤل والحيرة، وهو ينظر مرة أخرى إلى صورة بيل وأبنائها، مضيقًا عينيه في تركيز على جزء ما، جزء يتعلق بخاتم يسكن يد بيل اليسرى وهي تمسك بفليب، خاتم يحفظه عن ظهر قلب. بالرغم من أن الصورة بالأبيض والأسود، إلا أنه رآه خاتمًا فيروزيًا ذو نقوش متوازية، يعرف أن باطنه يخفي كلمة محفورة بآلة حادة: Belle أو ليتال بيل.

***

اليوم الخامس

- أيوة جاااااااي.

أطلقها صبي المصلحة الحكومية وهو يركض حاملًا صينية مزدحمة بأكواب، بعضها فارغ، والبعض الآخر ينتظر في استسلام من يسكب سائلها في فمه.

- لو سمحت.

قالها حازم وهو يستوقفه بيده ويناوله علبة سجائر - تبرز منها سيجارة - اشتراها خصيصًا لتلك المهمة.

- أؤمر يا بيه!

- ألاقي فين إدارة توثيق المتاحف؟

التقط السيجارة ثم حشرها خلف أذنه بعد أن دس العلبة في جيبه، وهو يرفع حاجبيه مشيرًا إلى السلم.

- تطلع سيادتك السلم ده الدور الثاني، خامس مكتب ع الشمال مكتوب عليه (الأرشيف) عند أستاذ "أشف".

- أستاذ مين؟!

- أشف.

- أشرف.

- آيوااااااااااا أشف.

- شكرًا.

- نوت آت أووول.

تركه حازم ليصعد درجات السلم حتى وصل إلى الطابق الثاني، ليرى حجرات المكاتب المتراصة يمينًا ويسارًا، تعج بالبشر، حتى وصل إلى أحدهم ودخلها ليجد ثلاث مكاتب ملتصقة، على كل مكتب كومة من الأوراق والملفات تكاد تخفي الموظف الجالس خلفها.

- لو سمحت.

- ...

- لو سمحت، أستاذ أشرف فين؟

- إرغي.

- نعم؟!

- اتفضل، أؤمر، أنا أشرف.

- كنت بس عايز أستفسر عن حاجة.

- حاجة إيه؟

- لو في متحف أو بيت أثري، عايز أجمع عنه شوية إنفورميشن.

- شوية إيه!

- إنفو... معلومات... شوية معلومات.

- مممممممممم، متحف إيه ده؟

- متحف جاير آندرسون أو بيت الكريتلية.

أخرج منديلًا ليتمخط فيه بعنف كالبركان، ثم نظر يساره صائحًا:

- يا سعاه، ياسعاااااااااااه، هو إحنا عندنا متحف اسمه جابر... جابر إيه بتقول؟

- لأ مش جابر، جاير آندرسون.

- المتحف اللي بيقول عليه ده؟

أجابته تلك الـ(سعاد) وهي تلوح بيدها:

- آه، متلقح في السيدة زينب جنب مسجد ابن طولون، عايز منه إيه يا أستاذ؟

قالتها دون أن تنظر إليه.

- كنت عايز بس أعرف معلومات عن الناس اللي عاشت فيه.

- ما تروح تسأل صاحبه.

- صاحبه!... يا أستاذة، والنبي ركزي معايا شوية، أنا بتكلم عن متحف أثري مش شقة إيجار جديد.

- آه، معلش يا أستاذ أعذرني، أصلي مانمتش من امبارح، الراجل جوزي ده إلاهي ربنا يجحمه هو وأمه مطرح مايروحوا، مطلع عين اللي جابوني، ديك النهار...

- يا ستي أنا مالي بكل ده، أنا عايز الأرشيف أراجع حاجة.

- يوه، طب إيه اللي جابك هنا؟ المكتب اللي في الوش يا أستاذ.

يبتلع رغبته في التلفظ بألفاظ خارجة ويستدير متوجهًا إلى المكتب المشار إليه، ودون تحية:

- كنت عايز أعرف سجل الأشخاص اللي سكنت في متحف (جاير آندرسون) اللي متلقح في السيدة زينب جنب مسجد ابن طولون... يا أستاذ.

- اكتب طلب واطلع الدور الخامس هات دمغة بـ...

طرق حازم المكتب بيده، كاشفًا عن ورقة نقدية بمائة جنيه، ليقاطعه في غيظ:

- شوف حضرتك، اللي مطلوب كله وأنا تحت أمرك.

رماه الموظف بنظرة صارمة صائحًا في غضب:

- عيب يا أستاذ، اللي انت بتعمله ده، بلدنا اتغيرت خالص بعد الثورة.

- أنا بعتذر.. مش قصدي أهين حضرتك.

قالها حازم مرتبكًا، وهو يمد يده ليسحب الورقة النقدية مرة أخرى، ولكن الموظف عاجله ليسبقه ويخطفها قبل أن تصل إليها يده قائلًا:

- مش القصد، بس يعني زي ما سعادتك عارف، كل حاجة غليت.

رمقه حازم بنظرة حادة وهو يدس يده في جيبه ليخرج ورقة نقدية مماثلة.

(خد يا روح أمك، يكش تشبع)

كان هذا ما يقصده عقله، أما لسانه المهذب فقد ترجمه إلى:

- اتفضل حضرتك، تحت أمرك.

مد يده مبتسمًا، كاشفًا عن أسنان اغتصبها التبغ.

- تنزل سعادتك دلوقتي، هتلاقي قدام باب المصلحة قهوة، تقعد عليها وتجيلي كمان ساعتين تكون المصلحة فضيت من الموظفين.

سحب حازم نفسًا عميقًا في محاولة فاشلة لإخفاء غيظه:

- ماشي، لازم بعد ساعتين؟ ما ينفعش بعد ساعة؟

- أنا عايز مصلحتك.

هز رأسه موافقًا ثم انصرف في استسلام.

***

جلس على أحد مقاعد المقهى المكتظ بالبشر، وطلب فنجانًا من القهوة، ثم أخرج هاتفه واتصل بفريدة عدة مرات، لكن لم يجبه أحد. عزفت الفترة الأخيرة عن الرد على هاتفها، انطوت في عزلة تامة حتى عن أقرب الناس إليها، أصيبت بحالة من النوم المستمر وفقدان الشهية، فقدت الكثير من الوزن وبرزت عظام فكها وغادرت عيناها محجريهما ضعفًا وإرهاقًا.

- اتفضل يا باشا.

قالها صبي المقهى وهو يضع قدح القهوة وبجانبه كوب من الماء المثلج، ليمسك حازم به ويجرعه مرة واحدة، ثم يبدأ في ارتشاف القهوة ببطء. أمسك هاتفه مرة أخرى واتصل بهاني (الهاتف الذي طلبته ربما يكون مغلقًا، يرجى....) إذن لقد غادر كل من حوله هذا الكوكب وتركوه وحيدًا، ما أصعب أن تحتاج لمجرد التحدث لأحدهم ولا تجده متاحًا. قضى الساعتين المتفق عليهما في مشاهدة مباراة معادة لكرة القدم، قبل أن يسدد حسابه ويغادر على عجل.

يعود مرة أخرى إلى المكتب ليجد الرجل في انتظاره وحده والمبنى شبه خالٍ من الموظفين، بمجرد دخول حازم هب الرجل واقفًا وهرع إلى الباب وأغلقه قبل أن يشير له ليتبعه. مشى حازم خلفه ليجد نفسه داخل صالة كبيرة تعج بالرفوف المفهرسة بالترتيب الأبجدي، رفوف تحمل تراث هذا البلد داخل حافظات مكتوب على كل حافظة اسم لمتحف أو أثر موجود داخل مصر، مر بعينيه على

متاحف عديدة لم يسمع عنها من قبل، وهو يمشي خلف الرجل ينظر يمينًا ويسارًا حتى اصطدم به بعد أن توقف بغتة عند إحدى الحافظات، ليسحبها ثم ينفخ فيها بقوة ليثير الغبار حوله قبل أن يظهر المكتوب عليها: (متحف جاير آندرسون - بيت الكريتلية) إذًا هو المطلوب.

ناوله لحازم، ثم أشار إلى أحد الكراسي المتهالكة بجانب إحدى النوافذ التي يتسلل منها شعاع شمس مرهق.

- سيادتك هتقعد هنا تخلص مصلحتك وتنادي عليا، إحنا قدامنا ساعة قبل العمال ما يقفلوا الأبواب، يا ريت تكون خلصت، معطلكش.

قالها وغادر في ارتباك ليترك حازم الذي جلس في رهبة يطالع محتويات الحافظة، بيانات تخص المتحف، تاريخ نشأته واسم مالكه الأول الذي شيده، وعدد غرفه ومحتويات كل غرفة على حدة، وصورة لصك امتلاك أحد الباشوات للبيت في حقبة ما، وصورة أخرى لإحدى الزيجات تمت بين جدرانه. الحقيقة، في ظروف أخرى ووقت آخر، لكان ما يطالعه حازم كنزًا حقيقيًا من كنوز تراثنا، ولكن لا وقت الآن للانبهار والاستمتاع بالتاريخ.

قلّب الأوراق والصور والعقود حتى وصل لبيان تفصيلي لتسلسل مالكي هذا البيت على مر العصور، أسماء مصرية وأجنبية مقترنًا بها الفترة التي عاشتها كل شخصية من تلك الشخصيات.

مسح بإصبعه على الأسماء من أعلى إلى أسفل بارتعاشة خفيفة، وهو يتمنى ألا يجد ما يبحث عنه، كطالب يطالع كشفًا بأسماء الراسبين يخشى أن يجد اسمه بينهم. انتهى من قراءة البيان،

ليتنفس الصعداء وهو يلملم أوراقه استعدادًا للرحيل، لكن استوقفته ورقة مهترئة سقطت من الحافظة، لينحني ويلتقطها ليجدها صفحة صفراء من جريدة قديمة، فيفتحها في فضول ويقرأ فحواها:

- الوقائع المصرية (جريدة رسمية للحكومة المصرية) الثلاثاء 13 إبريل عام 1920، وتحت رأس الصفحة عرض مرسوم لتأسيس شركة مساهمة مصرية تسمى (بنك مصر).

ولكن ما علاقة تلك الجريدة وهذا الخبر بمتحف جاير آندرسون؟

مؤكد قد سقطت تلك الصفحة بالخطأ في خضم عملية ترتيب أو تنسيق للملفات، حانت منه ابتسامة وكاد أن يطويها كما كانت مرة أخرى، ولكن انزلقت عيناه قليلًا إلى أسفل ليقرأ عنوانًا آخر يقول: (اختفاء زوجة الكولونيلساندرز في ظروف غامضة).

الغريب في الأمر أن جريدة الوقائع المصرية آنذاك، وفقًا لما هو معروف عنها، كانت ملحقًا للجريدة الرسمية المصرية، والمواد المنشورة بها كانت تختص فقط بالقرارات الوزارية والتأسيسية للحكومة المصرية، ولكن يبدو أن ذلك الكولونيل كان ذا شأن واسع حتى يُنشر له هذا الخبر.

شرع حازم في قراءة تفاصيل الخبر، الذي يقول:

"بلاغ إلى الكونستابل الإنجليزي النوبتجي بقسم جنوب حي -السيدة زينب حاليًا- عن تلقي اليوزباشي أنور السلحدار إشارة تليفونية من الكولونيل ساندرز القاطن ببيت الكريتلية، يفيد باختفاء السيدة زوجته وتدعى (إيستر كارلسون) في ظروف

غامضة ودون مقدمات، وقد انتقل لأخذ أقوال الكولونيل كلًا من السيد......".

ابتلع ابتسامته وشحب وجهه وهو يتحقق من الاسم ويعيد قراءته مرارًا وتكرارًا، الاسم الذي تمنى ألا يراه أبدًا:

إيستر كارلسون.

أو من كانت يومًا:

بيل جانيس.

***

اليوم السادس

- مساء الخير يا دكتور.

ابتسم سليمان بود وترحيب وهو يمد يده لمصافحة حازم وهاني.

- أهلًا وسهلًا.. إنتوا لسه عايشين؟!

قالها مازحًا.

- أرجو إن حضرتك متكونش زعلان مني.

- لا أبدًا يا حازم، أنا بس كنت خايف عليكم، لإن فعلًا كتب تحضير الأرواح دي أخطر مما تتخيل. أنا نفسي بخاف أستخدمها مع المرضى بتوعى وكنت خايف عليكم جدًا، المهم قولي...

- الجلسة أسفرت عن إيه؟

- ولا حاجة، مفيش حاجة حصلت، تقريبًا مؤلف الكتاب واللي باعه

نصابين.

- أو يمكن انت ما عرفتش تستخدمه؟

- يمكن.

- فين فريدة؟

- قاعدة بره مع مرات هاني، احنا بس حبينا نبلغ حضرتك بآخر التطورات.

- اتفضل.

حكى له حازم عن المراسلات التي تمت بينه وبين جاكوب والمعلومات التي أخبره الأخير بها، وكذلك اطّلاعه على ملف المتحف. انتهى حازم من السرد ليصمت سليمان مفكرًا قبل أن يقول:

- يعني بيل دي بريئة ولا مجرمة؟ ماتت يوم الحريق ولا هربت بعد كده؟ استخدمت اسم إيستر كارلسون ودخلت مصر بيه واتجوزت الكولونيلساندرز ده؟ إزاي واحدة عندها القدرة على التفكير والتصرف بالطريقة دي؟ بصراحة الحالة دي محيرة جدًّا، طب انت إيه رأيك؟

- الحقيقة أنا مش عارف يا دكتور، طيب لو هي مجرمة ها تكدب علينا ليه؟

- ممكن تكون بتكدب لمجرد إننا ما نحاولش نأذيها أو نطردها من جسد فريدة.. وطبعًا زي ما قولتلك قبل كده، كل ما فضلت الروح وقت أطول في الجسد كل ما بقى من الصعب طردها.

- هي الروح ممكن تبقى عنيدة كدة يا دكتور؟

- آه طبعًا، وأكتر من كده كمان. كان فيه حالة بعالجها ما خرجتش الروح منها غير وهي ميتة. أنا مش عايز أخوفك، بس عالم الروح ده مهما درسنا أو قابلنا حالات مشابهة، عمرنا ما هنفهمه 100%. المهم دلوقتي دخلوا فريدة، يمكن جلسة النهاردة تسفر عن أي شيء جديد.

***

يغرز المحقن، ينساب السائل الأزرق، ينتزع المحقن، يضع الضمادة، يضغط عدة أزرار، تئز الكاميرات، ينطلق الشعاع الضوئي، تبدأ فريدة العد 1، 2، 3... دقائق قبل أن ينطق سليمان:

- بيل.

- ...

- بيل.

- هل بحثت؟

- نعم بحثت.

- وماذا اكتشفت؟

- اكتشفت كذبك.

بابتسامة واهنة:

- أنت أيضًا مثلهم، لا تصدقني؟

- من "إيستر كارلسون" بيل؟

اختفت ابتسامتها فجأة لتصمت قليلًا قبل أن تجيب بهدوء:

- إحدى الأجساد التي سكنت...

- وماذا حدث لها؟

- قُتلت.

- من قتلها؟

- هي من قتلت نفسها.

- لماذا؟

- لأنها كانت ضعيفة، لم تتحملني داخلها، قتلت نفسها وقتلتني مرة أخرى، ألقت بجسدها في البئر لتتخلص مني.

- هل تريدين نفس المصير لفريدة؟

- بالطبع لا، رغم أنها تشبهها في ضعفها.

- إذًا اتركيها وغادري.

- أنت تـ حـ لـ م.

- ما عدت أصدق تخاريفك تلك، سوف تغادرين هذا الجسد شئتِ أم أبيتِ بيل؟

قالها بصوت غليظ لتسكن قليلًا قبل أن تجيب:

- سوف ترى، سوف ترون جميعًا.

قالتها بصوت يشبه الفحيح، وقد بدأ جسد فريدة في الاهتزاز

بقوة، وبرزت عروقها نتيجة لتشنجها المفاجئ. فزع حازم من مكانه ليلحق بسليمان الذي أمسك بجسدها المتخشب، بينما هاني اكتفى بالمشاهدة عن بعد لا يدري ماذا يفعل. ازدادت تشنجاتها قوة كمن صُعِق بشحنة كهربائية زائدة، صدر عنها صوت طقطقة عظامها، ثم سال من فمها رغوة بيضاء وارتفع صوت اصطكاك أسنانها.

أسرع سليمان لأحد الأدراج ليخرج محقنًا، ثم يكسر أمبول يحوي سائلًا أصفر ويسحبه كله داخل المحقن، ثم يقفز عائدًا ليغرزه في كتف فريدة. ثوانٍ قليلة حتى خمد جسدها مرة أخرى، ثم وضع أطراف أصابعه على وريد رقبتها الأزرق المنتفخ ليستشعر نبضها، ألقى بجسدها على أقرب مقعد في إرهاق بعد أن اطمئن، ومسح قطرات العرق على جبهته ليلتفت إلى حازم الذي ما زال ممسكًا بقدميها وهو جاحظ العينين:

- خلاص سيبها.

نظر إليه في شك قبل أن يرخى يديه بتردد، ثم جلس على مقعده غير مدرك لما حدث.

- هو إيه اللي حصل؟ مالها عملت كده ليه؟

- شكلنا استفزيناها.

حالة من الصمت قطعها هاني قائلًا:

- ده كويس إن إيريني ما دخلتش معانا، كان زمانها مغم عليها تاني، بس معناه إيه الكلام ده؟ يعني (إيستر كارلسون) دي بيل ولا واحدة من اللي استحوذت عليهم؟ أنا ما بقتش فاهم حاجة.

- ولا أنا.

قالها حازم وهو ينهض للاطمئنان على فريدة التي همدت تمامًا دون حركة، أخذ يربت على يدها برفق في محاولة لإفاقتها:

- فريدة... فريدة.

صدرت عنها ارتعاشة خفيفة قبل أن تبدأ في تحريك جفونها في محاولة لفتح عينيها وهي تقول بوهن:

- إيه؟ خلاص؟

- آه يا حبيبتي، خلاص، يلا علشان نمشي.

احتضن يدها وشكر سليمان، ثم غادروا العيادة.

***

تجلس والدة فريدة في حجرتها على الفراش ممسكة بمصحف، تتمتم همسًا ببعض الآيات ثم تضعه وترفع يدها تضرعًا بالدعاء. تعاود استكمال القراءة وقد تداخلت الكلمات بضبابية إثر ترقرق عيناها دمعًا، تمسح بكفيها ثم تكمل القراءة، وبينما هي تهز رأسها للأمام والخلف كبندول الساعة، يُطرَق باب غرفتها. تمسح وجهها ثم تعدل من شعرها المتناثر:

- اتفضلي.

يُفتح الباب في بطء بصريره المعتاد لتجد فريدة واقفة:

- ممكن أدخل؟

تفتح ذراعيها بابتسامة:

- طبعًا يا حبيبتي، تعالي يا فريدة.

تهرع إليها فريدة لتغوص في صدرها وهي تبكي:

- أنا تعبانة أوي يا ماما، تعبانة أوي.

حوطتها أمها بذراعيها وهي تنشج:

- عارفة يا حبيبتي، إن شاء الله أنا يا نور عيني.

انخرطا الاثنان في نحيب مكتوم:

- بكره ها تخفي وترجعي تاني فريدة، أجمل بنت في الدنيا، وهاتتجوزي حازم وتخلفوا أحلى ولاد، وهافرح بيهم وهما بيلعبوا حواليا ونعمل العيلة اللي كنت نفسي من زمان أعيش وسطها، بس انتي اصبري، اصبري يا حبيبتي.

ثم شرعت في تلاوة آية الكرسي وهي تمسد شعرها:

- اللّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ

لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ

لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ

مَن ذَا الَّذِي يَشْفَع...

بترت الآية إثر انغماس نصل سكين حاد بظهرها لتنتفض وهي تنظر بعينين جاحظتين إلى ابنتها التي لم يبدو على وجهها أدنى تأثر، وهي تنتزع السكين ببطء، ثم تغرسه مرة أخرى ولكن في

صدرها تلك المرة، تشهق بهلع صامت ثم يخبو ضياء وجهها تدريجيًا.

رفَّت بسمة حانية على وجهها وهي تمد يدها بوهن لتلتقط راحة يد ابنتها وتقبلها، قبل أن...

تسقط مدرّجة في دمائها وقد لفظت أنفاسها الأخيرة.

***

يحاول المقدم طارق اختراق الحشود المتجمعة أمام باب شقة فريدة، حتى تسلّل بصعوبة إلى الداخل. وصل إلى صالة المنزل التي تحولت إلى غرفة عمليات تعج برجال الشرطة والبحث الجنائي، وقد انشغل كل فرد بأداء عمله: أحدهم ينثر مساحيق ويرفع البصمات المتواجدة في كل شبر من الشقة، والآخر يلتقط عدة صور لتلك الجثة التي تسبح في بركة دماء، وقد ارتسمت على وجهها أمارات الهلع، بينما يحاول المسعفون تهدئة مريم التي أصابها انهيار عصبي نتيجة لما رأت، في حين جلست فريدة على أحد مقاعد الغرفة وقد تلطخت ملابسها بالدماء، تنظر في شرود غير عابئة بما يحدث حولها. نظر طارق إلى الجثة ثم رفع عينيه لفريدة قبل أن يسأل زميله دون النظر إليه:

- إيه اللي حصل؟

- جالنا بلاغ يا فندم باتصال بنت المجني عليها، وكانت مُنهارة تمامًا لدرجة أن متلقي البلاغ مفهمش منها ولا كلمة. الإدارة استعلمت عن رقم التليفون، وبعتت قوة للعنوان، ولما وصلنا لقينا الوضع زي ما سيادتك شايف كده.

قال وهو يشير إلى فريدة.

- قالت حاجة؟

- هي ما نطقتش غير بكلمة واحدة: (مش أنا).

- وأختها؟

- نفس الحكاية، ما نطقتش خالص، وفي حالة انهيار عصبي من ساعتها. مش عارفين ناخد منها ولا كلمة.

- طيب، بعد ما تخلصوا المعاينة، ارفعوا الجثة وانقلوا البنتين للمستشفى تحت الحراسة المشددة.

***

اليوم السابع

- سلامو عليكو يا دفعة.

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، أؤمر يا باشا.

- مكتب المقدم طارق فين لو سمحت؟

- آخر الطرقة شمال.

- شكرًا.

قالها حازم وانطلق مسرعًا حتى وصل إلى المكتب المقصود.

- لو سمحت، عايز أقابل المقدم طارق.

- المقدم طارق ما بيقابلش حد.

- أرجوك بعد إذنك، محتاج أقابله ضروري، قوله مش هاخد من وقته أكتر من خمس دقايق.

- بقول لحضرتك المقدم طارق ما بيقابلش حد، ويا ريت ما تضيعش وقتي ووقتك.

انفعل حازم صائحًا:

- يعني إيه ما بيقابلش حد؟ أنا مش جاي أشحت منه!

- لو سمحت يا باشا، متعليش صوتك و...

انفتح باب المكتب ليطل منه المقدم طارق صائحًا:

- في إيه يا بني؟ إيه الزعيق ده؟

انتفض العسكري مؤديًا التحية:

- الأستاذ عايز يقابل حضرتك، وفهمته ميت مرة إن حضرتك مش بتقابل حد.

ظل طارق يحدق إلى حازم لعدة ثوانٍ، قبل أن تظهر ابتسامة على وجهه ليمد يده مرحبًا:

- حازم... عبد الرحمن... يوسف!

بينما نظر إليه حازم في ذهول:

- طارق... النوبي!

احتضن كلاهما الآخر قبل أن يجذبه طارق إلى الداخل.

- هات لنا اتنين قهوة مظبوط يا ابني.

ثم أغلق الباب.

***

دخل العسكري وهو يمسك بصينية تحمل فنجانين قهوة وكوبين من الماء المثلج، ليضعها ثم ينصرف بهدوء.

- إنما قولي، انت جاي هنا تعمل إيه؟

- حماتي اتقتلت من يومين وكنت...

اتسعت عيناه في دهشة:

- انت حماتك اللي...

- آه.

- وانت متجوز مين فيهم؟ فريدة ولا مريم؟

- فريدة، بس الحقيقة إحنا لسه ما تجوزناش.

سكت قليلًا وهو يتفحص وجهه قبل أن يقول:

- انت عرفت منين إن أنا اللي ماسك القضية؟

- أنا روحت المستشفى علشان أتطمن على فريدة وأختها، وقابلت الحرس هناك ومنعوني من الدخول لحد ما أجيب إذن منك، قالولي المقدم طارق هو اللي في إيديه الموضوع ده، مكنتش أعرف إنهم يقصدوا طارق النوبى جاري اللي اتربيت معاه زمان قبل ما نسيب مصر القديمة.

سأله وقد ظهرت عليه ملامح الجدية:

- انت خاطب البنت دي من إمتى يا حازم؟

- من حوالي سنة وشوية.

- يعني تعرفها كويس؟

- آه، كويس جدًا.

- طب إيه اللي يخلي بنت زي دي باين عليها الرقة والوداعة، تعمل اللي عملته؟

أحنى حازم رأسه وهو يقول بحزن:

- الحقيقة الموضوع يطول شرحه، لو عندك وقت تسمع أحكيهولك من الأول.

- آه طبعًا عندي وقت، ده لو مش علشان خاطر شغلي يبقى علشان خاطر العيش والملح اللي بينا. أنا أكبر منك آه، لكن عمري ما هنسى معاملة والدك ووالدتك، الله يرحمهم.

نهض وهو يلتقط هاتفه ونظارته، ثم ارتدى سترته:

- تعالى نقعد على أي كافية نشرب قهوة بدل الصايصة دي، وندردش مع بعض شوية.

***

من السهل على أي طفل صغير التكهن بمهنة هذا الرجل بمجرد النظر إلى هيئته: يجلس طارق في أحد المقاهي وهو يُخفي عينيه المرهقتين بنظارة سوداء، واضعًا قدمًا فوق الأخرى بعد أن خلع سترته كاشفًا عن منكبين عريضين يتناسقان مع وجهه الصارم الحليق وشعره القصير. ألقى بهاتفه وساعة يده وجهاز لاسلكي لا يكف عن الأزيز بجانبه على الطاولة التي تفصل بينه وبين حازم،

قبل أن يقترب منه فتى المقهى مؤديًا التحية:

- طارق باشا، اؤمرني.

- هاتلنا اتنين قهوة بس من البن المحترم بتاعكم، ووطي صوت التلفزيون ده شوية.

- تحت أمر معاليك يا باشا.

قالها وانصرف ليلتفت طارق إلى حازم الذي انهمك في تفحص المكان، وبعد دقائق عاد الصبي ليضع فنجانين من القهوة وزجاجة مياه معدنية مثلجة على الطاولة، يمد طارق يده ليمسك بالقدح ويرتشف رشفة منه قبل أن يغمض عينيه في تلذذ ويعدل جلسته:

- اشرب يا باشا القهوة دي وها تدعيلي، واحكيلي واحدة واحدة عن خطيبتك، عرفتها إزاي وامتى، وعلاقتها بأهلها، وايه اللي ممكن يخليها تعمل اللي عملته ده؟

- مش هي يا طارق، قصدي مكنتش في حالتها الطبيعية لما عملت اللي عملته.

قطب حازم جبينه:

- مريضة نفسية يعني!

- مش بالظبط.

- مش بالظبط إزاي يعني؟

بارتباك وتردد:

- بص يا طارق... تقدر تقول كده... إن هي بشخصيتين.

- شخصيتين! عندها فصام يعني.

هم أن يشرح، لولا أن أخرسه صوت جهاز اللاسلكي بتشويشه المزعج، ليمسك طارق بالجهاز ويغلقه تمامًا قبل أن يستطرد:

- إحكيلي كل حاجة بالتفصيل علشان أقدر أساعدك.

- ماشي، بس هاتصدقني؟

- عيب يا حازم، ما تقولش كده.

سحب نفسًا عميقًا قبل أن يزفره ويبدأ في سرد الملحمة منذ بدايتها.

***

أنهى حازم كلامه منتظرًا تعقيبًا من طارق الذي ظل صامتًا لبرهة قبل أن يدفن سيجاره العاشر، بينما أشعل واحدة أخرى من العلبة التي أرسل الصبي لشرائها، وكان يستمع لحازم:

- عارف يا حازم؟ لو حد غيرك حكالي الكلام ده، أنا ما كنتش صدقته، ما تزعلش مني، بس أنا مش بؤمن بموضوع الأرواح والكلام ده.

- أنا عاذرك يا طارق، أنا كمان ما كنتش بصدق ولا بأمن بالكلام ده لحد ما حصل اللي حصل.

- المهم، انت ناوي على إيه؟

- انت شايف إيه؟

- أنا شايف إننا ممكن نقدم تقارير عن حالتها دي، يمكن نعرف نخفف العقوبة عليها أو نلغيها خالص، بس بعد اللي حكيته ده الموضوع اتصعب أكتر، أقدم تقرير للمحكمة يقول إيه؟ ملبوسة بروح واحدة تانية وهي اللي بتحركها؟ ده احتمال المحامي نفسه يتحبس، المحكمة بتقتنع بالأدلة المادية بس... مش عارف أقولك إيه!

- طب أنا أعمل إيه؟ مش عارف في الموقف ده المفروض إيه اللي يحصل!

- طيب، أنت دلوقتي أول حاجة تعملها توكلها لمحامي، ويا ريت تقعدني مع دكتور سليمان ده اللي كان بيحاول يعالجها، عايز أتكلم معاه شوية.

- بسيطة، شوف تحب تقعد معاه إمتى ونروح سوا نقابله.

- تمام.

أتم كلمته ليرن هاتفه:

- أيوه يا صفوت... آه، معلش، قفلته من ساعتين ونسيت أفتحه... خير؟! فاقت إمتى؟.. طب تمام، قابلني هناك.

أنهى المحادثة ليهب واقفًا ويرتدي جاكيت البدلة، ثم يدس هاتفه في جيبه ملتقطًا ساعته وجهازه اللاسلكي، قائلًا:

- مريم فاقت من صدمتها، والدكتور ها يسمحلنا ناخد أقوالها.

- طب ممكن آجي معاك؟

- هو ممنوع، بس هحاول أخليك موجود أثناء التحقيق معاها... يلا بينا.

***

مشى طارق عبر رواق المستشفى، وتبعه حازم حتى وصلا إلى باب غرفة مريم، التي كانت محاطة بحراسةٍ مشددة يرأسها النقيب صفوت، الذي أقبل مؤديًا التحية قبل أن يصافح طارق ويتفحص حازم بنظرة استفهام، سرعان ما أخفاها بمجرد أن أشار له طارق. أدّى الجندي المكلّف بالحراسة التحية وهو يمسك بمقبض الباب ويديره ليفتحه ويفسح لهم للدخول، ويتبعه صفوت وحازم، ليجدوا الممرضة تستبدل عبوة المحلول الفارغة بأخرى ممتلئة، بينما كانت مريم مستلقية في ثبات، شاخصة العينين صوب سقف الغرفة.

تقدّم طارق ليسحب مقعدًا ويجلس بالقرب منها، بينما ظل الباقون في خلفية المشهد واقفين.

- مساء الخير.

- ...

- آنسة مريم، مساء الخير.

- مساء النور.

قالتها في جمود دون أن تنظر إليه.

- أنا المقدم طارق، وجاي علشان أتكلم معاكي شوية.

- ...

- طيب، لو إنتِ مش عايزة أو مش قادرة تتكلمي، قولي لي ونأجل الكلام لوقتٍ تاني.

- سامعاك.

- ممكن تحكيلنا اللي حصل؟

بعد فترة صمت، وكأنها في عالمٍ آخر، تمتمت:

- أنا كنت نايمة، وصحيت أطمن على ماما زي كل يوم. بفتح باب أوضتها لقيتها.. لقيتها.. مقتولة وغرقانة في دمها.

- وفريدة؟

- فريدة كانت قاعدة جنبها، ما بتتحركش.

- وبعدين؟

- فضلت فترة مش قادرة أتحرك ولا أنطق، لحد ما قدرت أوصل للتليفون في أوضتي واتصلت بالشرطة.

- وفريدة؟

قالها بنفاد صبر.

- مالها فريدة؟

- سابتك تتصلي بالشرطة من غير ما تمنعك؟

نظرت إليه محدّقة، وكأنها انتبهت لأمرٍ ما.

- هي ما صدرش منها أي حركة أو مقاومة، بل بالعكس.. دي عملت أغرب حاجة ممكن واحدة تعملها في الموقف ده.

- عملت إيه؟

ابتلعت ريقها عدة مرات وقطّبت جبينها وهي تحاول استرجاع ما حدث.

***

جرت مريم إلى غرفتها، ثم التقطت سماعة الهاتف وهي تحاول تذكّر رقم الشرطة. أصابها الموقف بالشلل التام، وظلت تلطم خديها وهي تستدعي الرقم حتى تذكّرته أخيرًا. ضغطت بِغِل أزرار الهاتف: واحد، اثنان، اثنان، وانتظرت قليلًا حتى أجابها أحدهم.

- بوليس النجدة، اتفضل.

- أختي.. قتلت.. مامتي.. الحقـ....

- براحة وواحدة واحدة علشان أقدر أفهم منك. ممكن تاخدي نفس عميق وبعدين تطلعيه بالراحة وتحاولي تهدي. اسمك إيه؟

- أختي.. قتلت..

- طب عنوان حضرتك إيه؟

- ...

- طيب اقفلي عليكي أي أوضة، وخلال عشر دقايق هنكون عندك.

ألقت السماعة لتسقط متأرجحة كالمشنوق، ثم غادرت غرفتها

وهي تتحسّس الجدران لتعود إلى غرفة أمها، فتجد المشهد كما تركته منذ ثوانٍ: أمها غارقة في بركة دماء وقد تلطخ المصحف ببعضه، بينما فريدة تجلس تنظر إلى أعلى في ثبات، ثم بدأت ترفع يدها اليمنى ببطء، كرسّام يمسك بفرشاته، تحركها بحركات دائرية وهي تضحك بهستيريا، ثم فجأة تسقط يدها وتبدأ عيناها في الدوران، لكن كل عين تدور في اتجاهٍ عكس الأخرى. انقطعت أنفاسها، فما تراه يدعو للفزع، لا تدري إن كان هناك من يستطيع فعل هذا بعينيه.

ربما يوجد من يستطيع فعل ذلك،

لكن من المؤكد أنه

ليس بشريًا بالمرة.

***

- وبعدين؟

- ما حسّتش بنفسي غير وأنا في المستشفى.

التفت طارق إلى صفوت.

- مين فتح لكم الباب لما القوة وصلت؟

- إحنا خبطنا كتير، ولما محدش رد اضطرّينا نكسر باب الشقة... بس..

- بس إيه يا صفوت؟

- على حسب أقوال الآنسة مريم إنها أغمى عليها في أوضة مامتها،

لكن إحنا لما وصلنا لقيناها مغم عليها في أوضتها.

أدار وجهه مرة أخرى وهو ينظر إلى مريم.

- يمكن اتلخبطتِ أو حاجة؟

انتظر منها ردًا أو تعقيبًا، لكنها لم تتكلم.

خرج طارق وتبعه الجميع كالمعتاد، ثم توقّف واستدار.

- فريدة أخبارها إيه يا صفوت؟

- فريدة ما نطقتش بكلمة من ساعة ما وصلت، وما أعتقدش هنعرف ناخد منها حاجة دلوقتي.

- طيب، أنا همشي، ولو في جديد بلغني فورًا.

- أوامر.

***

في عيادة الدكتور سليمان، جلس كل من حازم وطارق في انتظار الدخول لمقابلته.

- إنت قلت لي الدكتور ده تخصصه إيه؟

- باراسيكولوجي.

- مممم.. أول مرة أسمع عن التخصص ده.

- للأسف مش معترف بيه هنا، لكنه موجود.

قالها ثم نظر إليه بارتباك، ليبادره طارق والدهشة تملأ وجهه:

- حازم، إنت عايز تقول لي حاجة؟

- هو أنا بس ليا رجاء لو أمكن.

- اتفضل.

- يا ريت ما تجيبش سيرة للدكتور عن قتل فريدة لمامتها، عشان ده ممكن يخليه ما يتعاونش معانا.

- ما تقلقش.

أخرج علبة سجائره، ثم تراجع عن الأمر، وظل يتفحص وجوه الجالسين حوله، حينما اقتربت منه المساعدة.

- اتفضلوا حضراتكم، الدكتور في انتظاركم.

- شكرًا.

قالها حازم، ليتجها معًا إلى غرفة الدكتور، وما إن دخلا حتى دعاهما للجلوس، ليبدأ حازم بالكلام مشيرًا إلى طارق:

- المقدم طارق.

- أهلًا وسهلًا، في جديد بالنسبة لفريدة؟

- إحنا جايين محتاجين مساعدة حضرتك يا دكتور.

-طيب وأنا ما قصّرتش في حاجة يا حازم.

قالها بنبرة حادة، ليبادره حازم:

- أنا عارف والله يا دكتور، أنا ما اتهمتش حضرتك بالتقصير.

- طب مساعدة إيه اللي إنت عايزها؟ وإيه المطلوب مني؟ وإيه علاقة موضوع فريدة بتشريف سيادة المقدم للعيادة؟

هنا نطق طارق لأول مرة:

- أنا ابن خالتها، والمطلوب من حضرتك تشرح لي حالة فريدة بالظبط، عشان عايز أطمن عليها.

- حالة فريدة بنسميها في مجالنا (Reincarnation)، لبس روحي بالعربي. روح واحدة اسمها بيل مسيطرة عليها. أكيد حازم بلّغ حضرتك بالجلسات اللي عملناها معاها.

- آه، بلّغني. طب أكيد حضرتك سجلت الجلسات دي، صح؟

- سجلتها طبعًا، أي جلسة علاج بتتسجل صوت وصورة، وبموافقة المريض، على اعتبار إن ممكن أحتاج أرجع لها في أي وقت.

- طيب، أنا محتاج من حضرتك نسخة من الجلسات دي.

- بسيطة.

- وكمان تقرير مفصل بحالة فريدة.

- بسيطة برضه.

بعد تفكير:

- طيب، هكتفي مبدئيًا بالجلسات والتقرير.

لم يعقّب سليمان على كلامه، وهو يضغط على أحد الأزرار المثبتة أمامه، لتدخل المساعدة.

- تحت أمرك يا دكتور.

- من فضلك انسخي كل جلسات فريدة على سي ديّهات واديها للباشا وهو خارج.

- حاضر يا دكتور.

ثم التفت إلى طارق معلنًا انتهاء المقابلة.

- حضرتك ممكن تاخد منها السي ديّهات النهارده، وبكرة الصبح هيكون التقرير التفصيلي على مكتب سيادتك. اتشرّفت بحضرتك.

- الشرف ليا، بعد إذنك.

نهض ليغادر المكتب، وتبعه حازم بعد أن صافح سليمان، ثم انتظر المساعدة حتى انتهت من نسخ الجلسات، ليحمل طارق الأقراص المضغوطة وينصرفا معًا.

وأمام سيارة طارق وقف، ليمسك بيد حازم قائلًا:

- تعالى أوصلك في طريقي.

- ربنا يخليك يا طارق، أنا هتصرف.

- ما تقولش كده، وأنا لو في جديد هابلغك. اديني رقم تليفونك.

تبادلا أرقام الهاتف، ثم انصرفا.

سار حازم إلى سيارته، بينما اهتز هاتفه، ليخرجه وينظر إلى اسم المتصل قبل أن يضغط زر الرد.

- هاني، إنت فين؟

- موجود، معلش كنت مشغول مع إيريني اليومين اللي فاتوا، إنت عارف الحمل بقى وحركاته.

- ربنا يقومها بالسلامة.

- المهم طمّني عليك وعلى فريدة.

- عندي أخبار مش حلوة يا هاني.

- خير؟

***

لو كان قلبي معي ما اخترتُ غيركمُ

ولا رضيتُ سواكم في الهوى بدلًا

عنترة بن شدّاد

***

اليوم الثامن

(طب مش هسيبها)

بأحد المقاهي التي يرتادها هاني، جلس حازم ليخبره بمقتل والدة فريدة، في حين ظهرت علامات الاستنكار والتعجّب على وجه الأوّل وهو يستمع لما يُقال، حتى انتهى حازم.

- لا حولَ ولا قوّةَ إلّا بالله، إزّاي فريدة تعمل كده؟

- مش فريدة يا هاني، ما تظلمهاش.

- أيوه، أنا فاهم يا حازم، بس برضه مش قادر أستوعب... لا حولَ ولا قوةَ إلّا بالله... لا حولَ ولا قوّة...

- ما خلاص يا هاني، خلاص يا أخي، أنا جايلك علشان تقولّي أعمل إيه.

- أعمل إيه! ده سؤال؟ تسيبها فورًا وتشوف حياتك بقى.

نظر إليه بغضب.

- تصدّق يا هاني، أنا غلطان فعلًا... سلام.

قالها وهو ينهض، ليلحق به هاني ممسكًا بيده ويجذبها ليجبره على الجلوس مرّةً أخرى.

- استنى يا حازم، أوعى تزعل مني، إنت عارف إنّي خايف عليك، خايف تفضل ماشي في السّكة دي وترجع تندم في يوم من الأيام، وخايف أكتر إنّك ما تلاقيش حتى الفرصة للندم. وإوعى تفتكر إنّك لو سيبتها دلوقتي حد هيلومك أو يتّهمك بالندالة أو الأنانيّة، إنت يا ابن الحلال ما قصّرتش معاها في حاجة، وعملت فوق اللي المفروض يعمله أي حد في مكانك. عارف؟ والله العظيم عارف إنّك بتحبّها ومش هتقدر تستغنى عنها، لكن أحيانًا بتجيلنا لحظة لازم نلغي فيها قلبنا وعواطفنا، ونفكّر بالمخ اللي ربّنا خلقه في دماغنا ده شوية. استخير ربّنا يا ابني كده، وحاول تنساها و...

قاطعه حازم منفعلًا، وقد احتد في غضب، احمر على أثره وجهه ونفرت عروقه، صائحًا:

- أقسم بالله يا هاني، لو كلّمتني في الموضوع ده تاني، أنا ما

أعرفكش ولا عايز أعرفك تاني.

ربّت على يده مهدّئًا، وهو يقبّل رأسه في حنو عارم.

- ماشي يا حبيبي، أنا آسف. شوف الحل اللي يرضيك وأنا معاك، وقسمًا على قسمك لو قلتلي: تعالى نروح في داهية سوا، ما هتأخّر لحظة، بس أوعى تزعل منّي.

أسِفَ لانفعاله المبالغ فيه، فسحب نفسًا عميقًا لتهدأ نبرته، ولتفلت دمعة من عينيه وهو يقول بحشرجةٍ خافتة:

- معلش يا هاني، ما تزعلش منّي، أنا مش قصدي أضايقك، أنا بس...

قاطعه:

- عُمري يا عبيط ما أزعل منك. خد منديل واهدَى، وقولّي تشرب إيه؟ علشان نتكلّم ونشوف هنعمل إيه.

- ماليش نفس أشرب حاجة.

- خلاص، وأنا مش هنزلك كلمة.

قالها والتفت مناديًا صبي الكافيه:

- يا هشـــــام!

- أيوه، جاي، أؤمر يا هاني بيه.

- الباشا مش عايز يشرب حاجة، فما تجيبلهوش نسكافيه من غير سكر، فاهم؟

ابتسم الصبي، وكذلك حازم رغمًا عنه.

- عيني يا هاني بيه.

ثم انصرف صائحًا:

- ومعندكش واحد نسكافيه سادة وصلّحووووه!

سحب هاني نفسًا قويًا من النرجيلة، وأطلقه قائلًا:

- ها يا باشا، هنعمل إيه؟

- مش عارف، بس الواضح ومن المؤكّد إن فريدة فرصة نجاتها من الموضوع ده ضئيلة جدًا. قبل ما أجيلك، عدّيت على المحامي وقعدت واتكلّمت معاه.

- ورأيه إيه؟

- بيقولّي تقرير دكتور سليمان ده غير معترف بيه في المحاكم بتاعتنا، المحاكم بتعترف بالتقارير الطبيّة الخاصّة بالمرض النفسي أو العقلي فقط، المشاكل الروحيّة دي مالهاش مجال في القضاء بتاعنا.

- خلاص، نضربلها تقارير تقول إنّها غير سويّة نفسيًا أو عقليًا.

- ده على أساس إن المحكمة هتاخد التقارير دي وتديها براءة وقتي؟! لأ طبعًا، هتتعرّض على لجان طبيّة من مستشفى العباسيّة، وبعد أوّل ربع ساعة هيكتشفوا إنّها سليمة.

- طب هنثبت براءتها إزّاي؟

- الحقيقة يا هاني، في سؤال قبل سؤالك ده.

- إيه هو؟

- هنعالجها إزاي الأول؟ ده اللي إحنا لازم نركّز فيه الأوّل، وبعد كده نبقى نمشي في طريق إثبات البراءة.

مط هاني شفتيه في اقتناع وهو يقول:

- كلام زي الفل، بس هنعالجها إزاي وهي تعتبر محبوسة في المستشفى؟

- ما هو ده اللي أنا فضلت أفكّر فيه لحد ما لقيت حل كده يعني.

- حل إيه؟

كاد حازم أن يجيبه، لولا أن اقترب منهما الصبي وهو يحمل المشروب، فابتلع كلامه حتّى انصرف، ثم اقترب من أذن هاني هامسًا:

- هنهرّبها.

أومأ هاني في هدوء قائلًا:

- كلام زي الفل.

ثم انتفض صائحًا:

- إنت قلت إيه؟!

- هششش، وطي صوتك، هتلم علينا القهوة.

أجابه هامسًا:

- ما هو اللي إنت بتقوله ده هيلم علينا أمّة لا إله إلّا الله كلّها، مش القهوة بس.

- مافيش قدّامنا حل تاني.

بادره بسخرية:

- تمام يا معلّم، ومعاك رجّالة ولا أجيبلك رجّالة من عندي؟

- أنا ما بهزرش يا هاني.

رد بجدّية بالغة:

- لا، أكيد بتهزر يا حازم. مش علشان نحل مشكلة نوقّع نفسنا في مصيبة. إنت عايز تهرّب واحدة من مستشفى، وعليها حراسة ومراقبة وبلا أزرق؟!

- ما هو إحنا لو اتأخّرنا أكتر من كده، هينقلوها من المستشفى للسجن، وهيبقى الموضوع مش صعب بس، لأ... مستحيل كمان.

- طيب هتهرّبها توديها فين؟

- ما هو ده دورك بقى يا بطل.

- دوري أنا؟!

- أه.

- إزّاي؟

- مش أهل مراتك من ساعة ما عرفوا إن بنتهم حامل، والعلاقات ما بينكم اتظبطت، وبقوا يتصلوا بيك علشان تسافروا العزبة

وتقعدوا معاهم يومين؟

- أه.

- طيب إيه رأيك نيجي معاكم؟

- إنت بتتكلم جد؟

- أه والله بتكلم جد.

بعد تفكير طويل:

- حاضر يا حازم، اديني يومين أدبّرلكم الموضوع ده.

- هو يوم واحد يا هاني، إحنا ما قدّامناش وقت كتير.

أجابه بيأس:

- حاضر يا حازم، حاضر.

- يلا بينا.

- على فين؟

- على دكتور سليمان نقنعه.

- نقنعه بإيه؟

- يعني هو مين اللي هايعالجها؟

- هار أسود، ده إنت مخطط وواخد القرار.

- بقولك مفيش وقت.

- طب يلا، يلا يا مجنون.

***

وأعرف أن الوصول إليك

انتحار

ويسعدني أن أمزق نفسي لأجلك أيتها الغالية

ولو خيروني لكررت حبك للمرة الثانية

أيا من غزلت قميصك من ورقات الشجر

أيا من حميتك بالصبر من قطرات المطر

نزار قباني

***

في طريقهما إلى الدكتور سليمان، توقف حازم عند إحدى ماكينات الصرف النقدي ليحصل على بعض الأموال... وهناك:

- أرجو إن آخر زيارة ما تكونش تسببت في مضايقة حضرتك.

- لا خالص يا حازم، بس أنا بكره رجال الشرطة عمومًا، لأن ليهم نظرة اتهام دايمًا وبالأخص لينا، على أساس إن إحنا دجّالين ومشعوذين ونصابين زي ما أنت عارف، وعايزك تعرف إنّي ساعدته بصفة وديّة وعشان القرابة اللي بينه وبينها، مش علشان هو ظابط.

ابتسم حازم دون أن يعقب، ليستطرد سليمان:

- بس أنا حاسس إن زيارة النهاردة مش علشان تعتذر بس عن اللي حصل آخر مرة، صح؟

ابتسم حازم بارتباك قائلًا:

- الحقيقة إحساس حضرتك في محله، إحنا كنا جايين نتكلم مع حضرتك في موضوع كده.

- اتفضل.

- كنا عايزين نكمل فترة العلاج لفريدة.

باندهاش:

- ماشي... SO WHAT؟

بارتباك:

- يعني لو أمكن... نسافر نغيّر جو وبالمرة نكمل فترة العلاج هناك.

بدهشة:

- وايه الهدف من السفر يعني؟

- أهو... تغيير جو... و...

قاطعه بنفاد صبر:

- ادخل في الموضوع يا حازم بعد إذنك.

- ماشي، إحنا محتاجين حضرتك تسافر معانا.

- مستحيل.

- ليه بس يا دكتور؟ أنا هاتكفل بكل المصاريف.

- مش مسألة مصاريف، بس أسيب العيادة والحالات اللي عندي

لمين؟

- أعتقد يا دكتور، حالة فريدة زي ما حضرتك قولت قبل كده إنها جديدة عليك وتعتبر اكتشاف مهم جدًا، وبالتالي صعب تتنازل عن الاكتشاف أو التجربة دي، مع العلم إن في دكتور تاني عرض علي علاجها دون أي مقابل، بس أنا حرصًا على زعل حضرتك اعتذرتله، وأول ما الراجل عرف إن فريدة بتتعالج عند حضرتك، تنازل بصدر رحب عن طلبه.

ضغط حازم على وتر كبريائه الحساس، ومربط فرس ضعفه، بينما حك سليمان رأسه مفكرًا، قبل أن يكيله حازم الضربة القاضية:

- دول عشرين ألف من تحت الحساب، واللي حضرتك هتطلبه هايجي لحد عندك.

قالها وأخرج رزمة نقدية ليضعها أمامه، ثم:

- بعد إذنك دلوقتي أروح أظبط إجراءات السفر وهاكلم حضرتك تاني.

***

اليوم التاسع

- ألو.

- أيوه يا حازم.

- هاني، عملت إيه؟

- قدمت على إجازة ليا وليك، وقلت لإيريني، وانبسطت بالفكرة

جدًا، وكلمت أهلها، وهم منتظرينا نروح، بس في نقطة.

- نقطة إيه؟

- أنا طبعًا ما حكيتلهاش عن اللي حصل، لأنها لو عرفت الكلام ده مش هتدخلني البيت تاني، فيا ريت أبوس إيدك ما تجيبش سيرة الموضوع ده قدامها.

- ماشي بسيطة، بس على الله ما تقعش بلسانك إنت وتجيب سيرة قدامها ولا قدام الدكتور، هنروح في داهية.

بقلق:

- داهية؟! والله طلاقي ما هييجي غير على إيدك.

- لا، ما تقلقش.

- ماشي، أفهم من كلامك إن الدكتور وافق على السفر؟

- آه، اتصل ووافق، بس عايز 100 ألف.

- هار أسود! وهاتدفعهم؟

- دفعتهم خلاص.

- وليه المبلغ ده كله يعني؟

- بيقولّي محتاج ينقل أجهزة ومعدات، والحاجات دي نقلها بيكلف.

- على الله بس ييجي بفايدة.

- إن شاء الله.

- على ميعادنا النهاردة قدام المستشفى الساعة 2 بالليل زي ما اتفقنا.

- ماشي، بس ما قولتليش هنعمل إيه؟

***

الساعة 2 صباحًا، أمام المستشفى المحتجزة بها فريدة

في ذلك الوقت، وقد خلى الشارع من المارة والسيارات، جلس حارس بوابة استقبال المستشفى ممسكًا بجهاز الترانزيستور الصغير، وهو يدير مؤشر التقاط الموجات في محاولة يائسة لإخفاء تلك الشوشرة الاستاتيكية، حتى يتثنى له الاستماع إلى مطربه المفضل وهو يشدو:

عشقت الحب في معبد بنيته.. بروحي وكياني

وخليت الأمل راهب مالوش عندي أمل تاني

أنور شمعتي لغيري ونارها كاوية أحضاني

وضع الجهاز باستسلام بعد أن يأس من تنقية الصوت، ثم بدأ في تضييق عينيه والاهتزاز كالممسوس، متقمصًا شخصية "نجيب الريحاني"، وهو يبكي عند سماع ذلك الجزء من الأغنية:

وأبيع روحي فدى روحي.. وأنا راضي بحرماني

وعشق الروح مالوش آخر، لكن.. عشق الجسد فاني

يحشي لفافة بيضاء بتبغه المفضل ويطويها، يخرج لسانه ليمرره عليها، وهو يلتقط ثقابًا ليشعلها، ويبدأ في سحب نفس عميق.

وفجأة...

تسطع أضواء سيارة تقترب منه بسرعة جنونية قبل أن تتوقف بفرملة أيقظت الأموات في قبورهم، لتتصلب قبل مقعده بسنتيمترات قليلة، ينزل كلًّا من حازم وهاني ويفتحا أحد الأبواب الخلفية ليتعاونا معًا في إخراج جسد تلك الفتاة التي ترتدي عباءة سوداء.

- خير يا باشا؟

قالها الحارس في فزع، ليصرخ فيه حازم بتوتر أتقن افتعاله:

- الاستقبال فين؟

فتح الحارس الباب على مصرعيه وهو يشير لهما بالدخول، يحمل حازم الفتاة بذراعيه وحده، ويتقدم بها، ويتبعه هاني محاولًا اللحاق به، ورسم علامات التوتر على وجهه بما يتطلبه الموقف، ممسكًا بشنطة بلاستيكية سوداء.

أمسك موظف الاستقبال قلمه بطريقة آلية متسائلًا:

- اسم الحالة لو سمحت!

- شروق الحسيني.

- طب اتفضلوا، الطوارئ الممر الجاي يمين، ولما تخلصوا نكمل الإجراءات.

انطلقا كما أشار لهما الرجل، وما أن توارا في الممر حتى أنزل حازم الفتاة عن ذراعيه، لتخلع عنها العباءة السوداء ويظهر وجه

سهام المرتبك، التي ما أن انتصبت واقفة وخلعت عنها العباءة حتى حشرتها في الشنطة البلاستيكية.

في تلك اللحظة، نظر حازم لهاني قائلًا:

- معلش يا هاني، أنا آسف، بس إنت ما بتعرفش تمثل.

نظر إليه هاني في اندهاش زال بمجرد أن ركله حازم بين فخذيه ليجثو على ركبتيه متأوهًا من شدة الألم، ساعداه - حازم وسهام - على النهوض، وساروا حتى وصلوا إلى حجرة الطوارئ ليستقبلهم الطبيب النوبتجي:

- خير، ماله!

- عنده ألم رهيب في بطنه يا دكتور.

- مش في بطني بالضبط.

قالها هاني وهو يكتم أنفاسه ليوكزه حازم معقبًا:

- يعني آخر بطنه كده.

- آه، طيب، خلوه يمدد على السرير، وأنا هاروح أشوف غرفة السونار جاهزة ولا لأ.

- اتفضل يا دكتور.

ما إن غادر الطبيب الحجرة حتى تبعته سهام لتتسلل بهدوء وتخرج من أحد الأبواب الخلفية للمستشفى، بينما أخرج حازم من الشنطة البلاستيكية معطفين بلون أبيض ليرتدي واحدًا، ويقذف بالآخر لهاني، الذي بدأ يستعيد أنفاسه، في حين أخرج حازم ولاعة

وامتطى أحد المقاعد ليقترب من إنذار الحريق المثبت بالسقف ويشعلها، فتعوي صافرات الإنذار لترج أرجاء المستشفى جميعها، ثم أمسك يد هاني وهو يجذبها ليهرعا خارجين من الغرفة، ويصعدا درجات السلم حتى وصلا إلى غرفة فريدة، التي يقف على بابها أحد الحراس، وقد أربكه صوت الإنذار والهرج الذي ساد المكان فجأة، ليقول:

- في إيه يا دكتور؟ خيرا

فيجيبه حازم لاهثًا:

- حريقة جامدة في الدور اللي تحتيكم، ومضطرين ننقل المرضى اللي في الدور ده للمبنى التاني، روح أنت الحق زميلك وبلغه ينقل المتهمة التانية للمبنى التاني بسرعة.

- حاضر يا باشا.

قالها وانطلق يعدو لينفذ الأوامر، في حين فتح حازم باب الغرفة ليدخل بينما انتظره هاني بالخارج، وفي الغرفة التي تسبح في ظلام دامس، تحسس بيده الحائط بحثًا عن مقابس الإضاءة، ليمسك بيد أخرى سبقته إليها، فينتفض فزعًا ويسقط أرضًا، أضاءت الغرفة ليجد فريدة تقف وهي تنظر إليه بثبات دون أن يرمش لها جفن، ينهض حازم ليمسك بيدها:

- فريدة حبيبتي، عاملة إيه؟

- ...

- طب يلا.. مش وقت كلام دلوقتي.

قالها ثم أخرج العباءة السوداء التي كانت ترتديها سهام منذ لحظات ويلبسها لها، ثم يخلع عن كتفه المعطف ويلقيه على الأرض، ثم يحملها بين ذراعيه ويغادر الغرفة مسرعًا، بينما هاني خلع بدوره معطفه وألقاه داخل الغرفة وأغلق الباب وانطلق خلفهما، وصلوا إلى بوابة الاستقبال وقد تبعه رجل الاستقبال بعينه وهو ينادي:

- يا أستاذ، يا أستاااااذ.

بينما اكتفى الحارس بالحملقة وهو يراهم قد استقلوا السيارة مرة أخرى، ثم يضغط قائدها دواسة البنزين لتنطلق السيارة، وفي طريق العودة أخرج هاتفه ليتصل بسهام:

- ألو.. أيوه يا سهام.

- أيوه يا حازم.

- أنا مش عارف أشكرك إزاي؟ إنتِ عرّضتِ نفسك للإحراج مع أهلك علشان تخرجي في الوقت ده، وعرّضتِ نفسك للخطر كمان، أنا لو عندي أخت مش هتعمل كده معايا.

تبتسم بمرارة:

- أخت! عمومًا ولا يهمك، ما تشغلش بالك بيا، وربنا معاكم وابقى طمني عليك كل فترة.

***

قالت جننت بمن تهوى فقلت لها...

العشق أعظم مما بالمجانين

***

- طب هي ليه جاية باللبس ده؟

قالتها إيريني وهي تتابع فريدة التي تجلس بجانب حازم على أحد المقاعد الأسمنتية برصيف محطة القطار، ليجيبها هاني قائلًا:

- أصلها اتخانقت مع مامتها وسابت البيت، أمال أنا ليه قلتلك تجيبيلها هدوم معاكِ؟

- يا حرام، طب يعني مش قادرين يستحملوها الفترة دي؟

- المهم قوليلي، عرفتي مامتك وباباك إن معانا ناس جايين؟

- أه... هم وضبوا الدار بتاعت الضيوف اللي هنقعد فيها.

ثم احتضنت ذراعه اليسرى في سعادة لتردف:

- بس أنا مش مصدقة إنك عرفت تاخد إجازة أخيرًا وهنقضيها كمان مع بعض، أنا حاسة إنها هاتبقى إجازة حلوة.

نظر بتوتر إلى حازم وفريدة الجالسان على بعد أمتار قليلة منهما:

- إن شاء الله يا حبيبتي، أوعدك إنها هاتبقى إجازة ما تتنسيش.

انطلق صفير القطار المزعج معلنًا وصوله، ليهبوا جميعًا حاملين الحقائب ويصعدوا درجات السلم، فيستقبلهم مسئول الحجز ويتسلم التذاكر الأربعة، استغرق ثوانٍ معدودة وهو يطلع على البيانات المدونة عليها، قبل أن يشير لهما:

- حضراتكم آخر كابينتين على الشمال، توصلوا بالسلامة.

توجهوا حيث أشار، لتدخل فريدة وإيريني إحدى الكبائن، وكذلك هاني وحازم في الكابينة المجاورة، وما أن دخل الأخير وأغلق الباب حتى أخرج هاتفه وأوقفه عن العمل نهائيًا.

***

"الهاتف الذي طلبته قد يكون مغلقًا، يرجى إعادة المحاولة فيما بعد".

انتزع طارق الهاتف من أذنه بعد سماع تلك الرسالة، ليلقي به في غضب على المنضدة المثبت عليها شاشات مراقبة المستشفى، بينما شرع يعيد مشهد هروب فريدة عدة مرات، وقد احتقن وجهه غيظًا.

- إزاي عرفوا يهربوها بمنتهى السهولة كده؟ إزاي!

هم صفوت أن يقول شيئًا، ثم ابتلع كلماته، المبررات في تلك المواقف تضر صاحبها لا تنفعه، فقط اكتفى بنظرة غضب صوبها إلى الجندي المكلف بحراسة غرفتها، الذي جلس القرفصاء في أحد أركان الغرفة يبكي رعبًا، بينما راح طارق يفتش جيبه عن شيء ما، ثم أشار بيده دون أن يلتفت إلى صفوت:

- اديني سيجارة.

دس الأخير يده في جيب سترته بتوتر وارتباك، وهو يخرج علبة سجائره ويلتقط منها لفافة تبغ ليناوله إياها، وأخرج ولاعته ليقدحها ويقترب بها من وجه طارق، الذي لم يبدُ عليه أدنى انتباه لشعلة النار المتوهجة، وهو ينهض من مقعده ويدنو بوجهه من الشاشة، ضاغطًا

بسبابته على وجه هاني حتى كاد إصبعه يخترق زجاجها غلًا، وقد اعتزم على أمر ما.

***

يستلقي حازم على أحد الأسرة وهو يتابع مشهد المزروعات وهي تفر هاربة للوراء من خلال النافذة، بينما ظل القطار يتأرجح وهو يعدو مسرعًا كعدّاء يحاول الفوز بماراثون الهروب، مصدرًا ذلك الصوت المميز، صوت اصطكاك عجلاته بالقضبان، في حين استلقى هاني على السرير الأعلى لسرير حازم، وقد سقط كتاب على صدره كان يقرأه بعد أن غط في نوم عميق.

***

اليوم العاشر

حقًا كان الاستقبال أسطوريًا، ما أن وصل القطار إلى المنيا حتى اخترقه حشد من عائلة إيريني ليحملوا عن المسافرين حقائبهم ومتعلقاتهم، بينما كانت تنتظرهم أربع سيارات فارهة بالخارج، حملت الجميع وتوجهت إلى قرية قريبة من محافظة المنيا، محافظة المنيا التي سميت على اسم مرضعة الملك خوفو بعد تحريف اسمها من (ميعة) إلى المنيا.

تتابعت السيارات بانتظام حتى انحرفت أول سيارة عن الطريق لتسلك منعطفًا جانبيًا تصطف أشجاره العجائز على الجانبين في تناسق عجيب، ومن ثم يتبعها باقي السيارات ليثير الموكب عاصفة من الأتربة فشلت في اختراق زجاج السيارات المغلق بإحكام، قطع

الموكب مسافة عشرين كيلومترًا حتى وصل إلى بوابة حديدية ضخمة يعلوها صليب نحاسي ضمم خصيصًا ليتناسب مع حجم البوابة الأسطوريّة، التي كتب عليها:

"عزبة السيد/ رمزي واصف"

هب الحارسان ليضعا بنادقهما جانبًا ويدفعا الباب لإفساح الطريق للسيارات، التي لم تقلل سرعتها مترًا واحدًا وهي تعبر البوابة، التي انغلقت خلفهما بمجرد دخولهم، قطعت السيارات مسافة أخرى حتى تسلل الملل واليأس إلى قلوبهم، عدا إيريني التي ظلت تنظر إلى معالم عزبة أبيها، وفرحة الاشتياق قد غزت ملامحها وزادها حماس طفولي. لاح لها أبوها وأمها يقفان أمام باب الفيلا، فطفقت تلوح بيدها في سعادة غامرة وامتدت يدها الأخرى لتفتح باب السيارة التي لم تتوقف بعد لتتعجل النزول، ثم ركضت وهي تحتضن بطنها المنتفخة، في حين أقبلت عليها أمها لتحتضنها.

- بالراحة يا حبة عيني، علشان اللي في بطنك.

عانقتها إيريني بقوة وهي تبكي:

- وحشتيني يا ماما، وحشتيني أوي.

ثم توجهت إلى أبيها وهي تنحني لتلثم يده في احترام، ثم أمسك برأسها وطبع قبلة حانية على جبينها:

- نورتي بيتك يا بنتي.

جففت دموعها وهي تشير:

- ده هاني جوزي يا بابا وحازم صاحب هاني وخطيبته.

بعد تبادل التحيات وعبارات المجاملة، دلف جميعهم إلى داخل الفيلا، ليتقدم أحد الخدم حاملًا صينية عليها أكواب مشروب غازي، تبعه آخر حاملًا عدة أنواع مختلفة من الفاكهة الطازجة:

- اتفضلوا بالهنا والشفا.

قالتها الأم وهي تحاول حشر جسدها المترهل في أحد المقاعد، بينما ظل الأب واقفًا باعتداد مستندًا على عكازه، وهو يرمق الحاضرين بثبات، بدت على ملامحه الجدية والصرامة كطبيعة معظم رجال الصعيد، ملامح مألوفة لمن شاهد محمود مرسي في فيلم شيء من الخوف بحاجبيه الكثين وشاربه الضخم المنمق، يرتدي الجلباب الأبيض أسفل عباءة سوداء منتفخة من حوله، ويرتدي في بنصره الأيسر خاتمًا ذهبيًا ضخمًا.

الفيلا مكونة من طابقين يتوسطهما درج رخامٍ فاخر، تتدلى نجفة عملاقة من سقف الفيلا ترتفع عن الأرضية بخمسة أمتار كاملة، يقسم من يراها أنها على وشك السقوط، الطابق الأرضي ذو أرضية رخامية براقه، ويترامى الأثاث الراقي بأنحائه، معلق على الحائط صورة للعذراء بوجهها الملائكي وهي تحتضن ملكًا بجناحين، وصورة أخرى لطفل يبدو أنه أحد أحفاده، معلق على أحد الحوائط شاشة تلفاز ضخمة تعرض فيلمًا قديمًا لإسماعيل ياسين.

الفيلا هي أقرب إلى المتحف، ولكن متحف تغزوه وسائل الترفيه الحديثة، لن تندهش كثيرًا لو بحثت بهاتفك الذكي ووجدت شبكة إنترنت لاسلكية تعمل بالفعل.

قطع السيد رمزي الصمت قائلًا:

- أهلًا وسهلًا بيكم، البيت ده بيت الضيوف، اعتبروا نفسكم في بيتكم، انتوا لسه واصلين وأكيد محتاجين ترتاحوا شوية. بعد ما تتغدوا وتشربوا الشاي ممكن تطلعوا فوق تريحوا، الغرف كتير، اختاروا منها اللي يعجبكم، في سجادة صلاة في كل أوضة ومفروشة في اتجاه القبلة، وراديو علشان تسمعوا الآذان، ومعاكم (جرجس) هيكون موجود في خدمتكم لو احتجتم أي حاجة، وأنا فيلتي جنبكم لو عوزتم أي حاجة.

أشار إلى زوجته التي هبت مُلبية تهتز كالشاحنة، وهو يردف مشيرًا إلى إحدى القاعات الجانبية:

- اتفضلوا الغدا جاهز.

ثم انصرف وتبعته زوجته في خضوع.

تقدمت إيريني وهي تحتضن يد فريدة، وتبعهما حازم وهاني في انبهار، متسائلين عن مدى ثراء ذلك الرجل. إن كان ذلك المتحف مُعد للضيوف، فكيف يكون منزل الرجل ذاته!

***

بعد وجبة غداء دسمة، صعد الجميع إلى أعلى لتستقر إيريني مع زوجها في غرفة، وفريدة في الغرفة المجاورة لهما، أما حازم استقر وحيدًا في غرفة ثالثة، وما أن أغلق الباب حتى خلع ملابسه وراح يتفقد الغرفة.

الغرفة لا تختلف كثيرًا عن طابع الفيلا الفخم، سرير يكفي شخصين محاط بزوج من الكومود، وقد وضع أمامه شاشة تلفاز، ومثبت على إحدى الحوائط مكيف هواء يعمل في صمت، توجد خزانة ملابس فارغة ينتصب فوقها صليب نحاسي، يبدو التدين الشديد على هؤلاء القوم. بجانب الفراش توجد سجادة للصلاة موضوعة بعناية في اتجاه القبلة كما أخبرهم والد إيريني، حقيبته تنتظره بجانب باب مغلق، اقترب حازم ليفتحه ليجد دورة مياه مُلحقة بالغرفة، هذا الرجل لم ينسَ شيئًا في تصميم هذا القصر.

بعد الاستحمام، ارتمى عاريًا على الفراش في إنهاك ليغرق في نوم هادئ.

***

استيقظ في المساء على صوت طفلٍ يلعب، فاعتدل على الفراش مُشتتًا لثوانٍ معدودة، يسترجع فيها أحداث المكان والزمان؛ فعندما تصحو على فراشٍ غريب تُصاب بالذهول لبرهة قبل أن تستجمع شتات ذاكرتك مرةً أخرى. نهض في وهنٍ، ليُخرج ملابسه من حقيبته ويرتديها، ثم يغادر حجرته، مُلقيًا نظرةً من أعلى، ليجد هاني وإيريني يجلسان مع رجلٍ وسيدةٍ لم يتبيّن من ملامحهما سوى أن الرجل ذو لحيةٍ كثيفة، ويرتدي زي القساوسة الأسود المعروف، ويتدلّى على صدره صليبٌ خشبيٌ، أمّا المرأة الأخرى فهي سيدةٌ تبدو في أواخر الثلاثينيات من عمرها، تبتسم في وُدٍّ، وتحتضن إيريني بذراعها اليمنى، بينما تمسح بكفّها اليسرى على بطنها برفقٍ ورقّة، وهما يتبادلان أطراف حديثٍ هامس، بينما يراقب حازم

الموقف من أعلى. ارتطم به أحدهم لينتفض فزعًا.

- أنت مين؟

هدأ قليلًا قبل أن يجيب، وهو ينظر إلى ذلك الفتى الذي لا يتجاوز العشر سنوات:

- أنا حازم، أنت بقى اسمك إيه؟

- أنا بيشوي.

قالها وقد ارتسمت على ملامحه ابتسامةٌ بريئة، وهو يبسط كفَّه ليصافح حازم، ثم هبطا الدرج معًا، وما إن شعر الجالسون باقتراب حازم حتى اعتدلت السيدة الودود في جلستها، وأطرقت نظرها إلى أسفل، بينما نهض القِس ليصافح حازم في وُد وترحاب. جلس الأخير، لتبدأ إيريني الحديث:

- أقدِّم لك يا حازم عمي الأنبا (إبرام)، ودي الأخت (تريز) بنت عمي، وطبعًا ده الأستاذ (بيشوي) ابنها.

- آه، اتعرَّفت عليه فوق، معلش إحنا هنعملكم دوشة اليومين دول.

أجاب إبرام في وُدّ:

- ما تقولش كده، والمسيح الحي، إنتوا منوَّرينا، ده كفاية إنكم كنتوا سبب إننا نشوف إيريني بعد الفترة الطويلة دي.

قطع حديثهم صوتُ أقدامٍ تهبط على الدرج في تردُّد، نظر الجميع تجاه مصدر الصوت، ليجدوا فريدة وقد ارتدت ثوبًا أبيض من أثواب إيريني، وهي تهبط في بطءٍ وريبة.

- تعالي يا فريدة.

قالتها إيريني وهي تبتسم.

تردّدت، ثم تشجّعت، ثم اقتربت.

- ده عمي الأنبا إبرام، ودي تريز بنت عمي.

لم يبدُ عليها أي رد فعل، في هدوءٍ جلست، وفي صمتٍ أطرقت رأسها أرضًا. بدا الإحراج على وجه تريز، بينما ارتسمت معالم الاهتمام على قسمات إبرام، وهو يتفحّص وجهها بدقة، في حين كف بيشوي عن اللعب، والتصق بأمّه في توجُس. اختلق حازم بعض الأحاديث التقليدية لإنقاذ الموقف، فغرق الجميع في الكلام لمدة نصف ساعةٍ كاملة، عدا الأنبا إبرام الذي حاول منع بصره عدة مرات من الانزلاق إلى وجه فريدة؛ هناك شيءٌ في نظرتها الشاردة غير مريح، شيءٌ في ملامحها يُنذره بأمرٍ ما، لكن في النهاية نفض عن رأسه تلك الوساوس عازمًا الرحيل. تبادلا، هو وابنته، التحية والمجاملات، ولم ينسَ أن يُلقي نظرةً أخيرة على فريدة، ثم انصرفا في هدوء.

***

- ينفع اللي عملته فريدة ده؟

قالتها إيريني وهي ممدّدة على فراشها، ليجيبها هاني وهو يداعب جهاز التحكُّم الخاص بالتلفاز، بحثًا عن قناةٍ مسلّية:

- معلش يا حبيبتي، إنتِ عارفة ظروفها، اعذريها.

- أنا عاذراها والله يا هاني، بس الناس ذنبهم إيه؟ وبعدين ما هو كله في وشك، هيتقال عليك إيه؟ بتعرف ناس قليلة الذوق! وأنا بصراحة ما صدّقت علاقتك بأهلي اتحسّنت، مش عايزاها تبوظ تاني.

- يا حبيبتي، أهلك دول أحسن ناس في الدنيا، ده كفاية الاستقبال والكرم والودّ، طيبين قوي الصراحة، وخصوصًا باباكي.

ابتلعت سخريتها قائلة:

- على فكرة بابا أطيب واحد في الدنيا، بس هو يعني جد شوية... لأ، شويتين الصراحة. بكرة تعرفه وتغيّر رأيك.

- إن شاء الله. تصبحي على خير.

بغضب:

- إنت هتنام!

- ما هو "تصبحي على خير" دي ما بتتقالش قبل دخول الحمّام يعني.

- طيب يا هاني نام، وإنت من أهله.

- ما تنسيش تصلي.

- صلّيت يا أخويا.

ثم استدارت متمتمة:

- أصل إنت واخد أجازة ومسفّرنا علشان تسيبني وتنام.

***

"كلُّنا هنموت يا حبيبي".

***

اليوم الحادي عشر

شمسٌ فتيّة، وشجرةٌ عجوزٌ معمّرة تنتصب منذ الأزل في شموخٍ، بتجاعيد وشقوقٍ تصف حكاياتٍ وأساطير، سامقةً في منتصف حديقة الفيلا، تُرسل فروعها يمنةً ويسرة، لتتلاحم مع قرص الشمس الذهبي، فتصنع ظلالًا حانية ونسائم رقيقة رفرفت لها فستان فريدة الجالسة على أحد المقاعد الخشبية المنتشرة في أرجاء المكان، ساكنةً تنظر إلى اللا شيء، وقد شبكت أناملها وأراحتها على منضدةٍ خشبية امتلأ سطحها بأوراق شجرٍ خضراء متساقطة. لم تنتبه لصوت هشيم الأوراق الذابلة تحت قدمي حازم وهو يقترب منها.

- صباح الخير.

- ...

دنا منها ليجلس بالمقعد المجاور، ويمد يده ليفك اشتباك أناملها، ويحتضن راحتها بين يديه.

- فريدة، أنا عارف إنك سامعاني وفاهمة كل كلمة أنا بقولها، أنا عايزك تساعديني، مش عايزك تستسلمي، عايزك ترجعي زي زمان، علشان... إنتِ بجد وحشتيني قوي...

ظلت في صمتها ولم تحرّك ساكنًا، ليردف:

- دكتور سليمان جاي بكرة وهنكـ...

التفتت إليه وقد جحظت عيناها دامعتين، لترتعش يد حازم في توتُّر.

- ما تخافيش، أنا جنبك، مش هستغـ...

- عايزة أمشي من هنا.

- تمشي؟ تروحي فين؟

- إنت... مش... فاهم حاجة... أ.. أ.. أنا...

- إنتِ إيه يا فريدة؟

ارتعشت شفتاها في خوفٍ وتوتُّرٍ ورعب، ثم فَحَّت:

- هي... مش... هترحمكم.

حدَّق حازم إلى عينيها بمزيجٍ من الغضب والخوف والتحدي.

- وأنا مش هسيبك.

رمقته لثوانٍ قبل أن تومئ برأسها، وشبح ابتسامةٍ ساخرة وَمَضَ لجزءٍ من الثانية، قبل أن تعود ملامحها للجمود مرةً أخرى، وتنهض مغادِرة، تعود بآليةٍ إلى الفيلا وتختفي، في حين ظل حازم جالسًا في محاولةٍ لاستيعاب ما قالته. أطرق برأسه في أسًى، وفي تلك اللحظة...

استعر شوقه إلى أمِّه، جاش صدره بحنينٍ جارف ليدها وحضنها، تذكَّر وجهها الصافي وهي تبتسم وتُطمئنه وقت ضيقه... كم هو في

أشد الاحتياج إليها في تلك اللحظات.

شعر بمن يجلس بجانبه، أدار وجهه ليجد هاني مبتسمًا كعادته.

- مالك؟

- لا، مفيش... إنت عامل إيه؟ وإيريني أخبارها إيه؟

- كويسة الحمد لله.

- قولها ما تزعلش من اللي حصل امبارح.

- لا، مفيش زعل ولا حاجة، هي بعتاني علشان أعزمكم.

- تعزمنا!

- آه... بنت عمها الصغيرة هتتجوز النهارده.

- وهتعملوا الفرح فين؟

- في الكنيسة اللي في أول القرية.

- طيب ما إنت عارف يعني الظروف...

- مالها الظروف؟ الدكتور لسه هيوصل بكرة، وعم إيريني كان هنا امبارح مخصوص علشان يعزمنا، وقعدتكم في البيت مالهاش لازمة. تعالوا غيّروا جو، وتحضروا إكليل في كنيسة... أهي حاجة جديدة.

بدا كلامه مقنعًا، فأومأ علامة الموافقة، قبل أن يسأله:

- عملت اللي قولتلك عليه؟

- آه، ما تقلقش، فضّيت المطبخ من الشوك والسكاكين، وأي حاجة

معدن ممكن تبقى مصدر خطورة، والحمد لله إن الأكل بيتعمل في البيت الكبير مش هنا... أنا بس مش خانقني في العزبة دي غير حاجة واحدة بس.

- إيه؟

- مفيش شيشة... هموت وأشرب حجر.

***

يا قلبُ أنت وعدتني في حبّهم صبرًا

فحاذر أن تَضيقَ وتَضجَرا

ابن الفارض

***

تسطع أضواء الكنيسة لتنعكس على الصلبان النحاسية البراقة، وتفوح رائحة البخور في المكان، بينما جلس الحاضرون على الأرائك الخشبية في انتظار العروسين. تعلو الزغاريد فيهب الجميع وقوفًا لاستقبال العروسين، ويدخلا متشابكي الأيدي، وتعلو وجهيهما ابتسامة فرح وهما يتطلعان للحضور بإيماءات ترحيب ومحبة. يتقدمهما شمامسة الكنيسة بزيهم ناصع البياض، وهم يرتلون الألحان القبطية، ويستقبلهما الأرشيدياكون ليصافحهما ويصحبهما حيث يقف الكاهن بزيه الأسود تحت صورة ضخمة للعذراء تحمل ملاكها. ينحني العروسان لتقبيل يده، يرسم على جبهتيهما الصليب، يرفع البخور ويمرره بين رأسيهما للمباركة، ويقترب الأطفال حاملين الشموع البيضاء.

تتزاحم الكاميرات والهواتف لتسجيل تلك الذكرى السعيدة، ويقف حازم مبتسمًا في حبور، يتابع ما يحدث. لغة الفرح واحدة لا تختلف باختلاف الأديان أو المعتقدات أو حتى الجنسيات؛ فملامح السعادة البشرية لا تحتاج إلى مترجم، بل إلى قلب يستشعرها.

يشرع الكاهن في تلاوة تراتيله وأدعيته، ويمد حازم يده محتضنًا يد فريدة وهو ينظر إلى عينيها بمحبة، بينما يدعو الخالق همسًا بتعجيل اللحظة التي تجمعهما معًا.

يقول الكاهن:

"باسم ربنا ومخلصنا يسوع المسيح"

فيردد حازم همسًا:

"بسم الله الرحمن الرحيم، يا أبانا الذي في السماوات، يا مالك الأرض والسماوات، يا أبت قدسهما في الحق ومنحهما رباط المحبة، يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه اجمعني بها على خير. لك المجد أيها الآب والابن والروح القدس، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين. آمين. آمين".

تقاتل الحضور على تهنئة العروسين، بينما جذبت إيريني زوجها ليذيلا صف المنتظرين لمصافحة ومباركة الكاهن، حتى وصلا أمامه. تنحني إيريني وتقبل يده:

- بارك لي إبني يا أبونا.

لم يعترض هاني، بل وقف يتابع الكاهن وهو يمسح براحته على

بطنها ويرسم بالأخرى صليبًا أعلى جبهتها متمتمًا ببعض الكلمات، ثم خشبت يده وتصلبت عيناه صوب إحدى الفتيات؛ فتاة تقف وحيدة بين جموع الحاضرين، تحدق إلى الصليب النحاسي الضخم المتدلي من سقف الكنيسة وتضحك.

انتهت مراسم الإكليل ليعود الجميع إلى الفيلا مرة أخرى. يجلس حازم في غرفته على الفراش ضامًا ركبتيه إلى صدره، يتابع شاشة التلفاز في ضجر، يتنقل بين القنوات في ملل، حتى سمع صوت طرقات على باب حجرته.

***

خذوا بدمى ذات الوشاح فإنني

رأيث بعيني في أناملها دمي

يزيد بن معاوية

***

يستلقي هاني على فراشه ممسكًا برواية "قبل أن أخلد إلى النوم" لـ"س. ج. واتسون"، يلتهم الكلمات بنهم لم يلحظ حتى زوجته التي انتهت من صلاتها وعادت إلى الفراش لترقد بجانبه، محدقة في سقف الحجرة، تتأفف بين الحين والآخر بعينين تطلق شررًا، ثم تعتدل لتجلس وتلتفت إلى زوجها بغضب:

- وبعدين بقى!

دون أن ينظر لها:

- وبعدين بقى ايه يا حبيبتي؟

- يعني مش عارف؟ آخر اللي بتعمله ست فريدة ده ايه؟

يرفع حاجبه الأيسر ماطًا شفتيه في امتعاض يائس من التبرير:

- معلش استحمليها، كلها يومين تلاتة و...

- أستحملها لغاية إمتى؟ كل شوية تسببلي إحراج مع حد من أهلي!

يضع الكتاب بعصبية:

- يعني اعمل ايه طيب؟ أروح أقتلها وأجي؟

- بدل ما تتريق، روح كلم صاحبك قوله ما ينفعش اللي بيحصل ده، أنا ما عدتش مستحملة، ولما أشوفها هاقولها الكلام ده بنفسي واللي يحصل يحصل.

بسخرية عصبية:

- دلوقتي ما عدتيش مستحملة! مش دي اللي كنتي بتقولي يا حرام إزاي أهلها مش مستحملينها!

لم تجبه، فيُنزل قدميه ليدسهما داخل خفيه:

- رايح فين؟

- هروح أكلم حازم، أقوله كده ما ينفعش.

ثم وقف ممسكًا يسراه بيمناه، مائلًا برأسه تجاهها:

- أي أوامر تانية؟

أشاحت بوجهها بلا رد، فتوجه ليمسك بمقبض الباب ويفتحه، يلمح في ظلام الرواق شيئًا قد مرق مسرعًا أمام عينيه، يجفل برهة، قبل أن يخرج متلفتًا حوله فلا يجد شيئًا، يهز رأسه ظنًا أنه توهم ما رأى.

يتحرك صوب غرفة حازم، يطرق بهدوء، يتحرك الباب بصريره المعتاد ليجده مواربًا، يقطب حاجبيه في دهشة ويفتحه بتردد. يصدر صريرًا مزعجًا، يتحسس الجدار بحثًا عن زر الإضاءة حتى يرتطم به ويضيء الغرفة ليجد الفراش خاليًا، ولا أثر لحازم.

يخطو بقدمه فيتعثر في شيء صلب، يتمالك توازنه قبل أن يسقط، ثم ينظر إلى مصدر تعثره ليجد حازم ممددًا، وقد فُدغ رأسه وسال الدم منه، وشمعدان نحاسي ملقى بجانبه، ملطخ بالدماء. جاهد وهو ينحني ليضع أذنه على صدره، وقد احتشدت قطرات العرق على جبينه، ثوانٍ حتى هدأت ملامحه، ثم نهض عائدًا إلى غرفته. دفع الباب لتفزع إيريني، فيبادرها:

- اتصلي بحد يبعتلنا الإسعاف!

- إسعاف! إسعاف ليه؟

- حازم دماغه مفتوحة وعمال ينزف!

اتسعت عيناها رعبًا:

- ايه اللي حصل؟

أجابها بنظرة: *(نعم، هو ما تفكرين به)*.

وثبتت، متخلية عن محاذيرها الطبية، لترتدي ملابسها ثم تتصل بأبيها، بينما غادر هاني الحجرة مسرعًا قائلًا:

- اقفلي الباب على نفسك من جوه!

- هاني، ما تسيبـ...

تصلب أمام غرفة فريدة، يسحب نفسًا عميقًا، مكورًا قبضتيه كمن يتأهب لخوض معركة مصيرية، ثم اتخذ قراره. طرق الباب عدة مرات فلم تستجب، بيد مرتعشة تقبض في رعب وتوتر على مقبض الباب ويفتحه بسرعة متوقعًا الأسوأ، لكنه لا يجدها في الغرفة. سحب نفسًا أعمق، أمسك رأسه بعينين متسعتين محاولًا ترتيب أفكاره والتفكير بمنطقية.

إذًا ما رآه يمرق أمامه لم تكن محض خيالات، بل كانت هي، ولكن أين هي الآن؟

لا يهم... المهم الآن إنقاذ صديقه المصاب.

عاد مسرعًا إلى الغرفة، خلع سترة منامته وربط بها رأس حازم لإيقاف سيل الدم المنهمر، مُحدثًا ذاته والدمع يكاد ينهمر من عينيه:

- قولتلك يا حازم انفذ بجلدك، ما سمعتش كلامي ليه يا أخي!

التفكير المنطقي الثاني: الإبقاء عليه حيًا لحين وصول الإسعاف. خرج ثم أغلق الباب بالمفتاح.

الآن الجميع في مأمن... ثم انتبه:

"لا، ليس الجميع".

هبط مسرعًا إلى مطبخ الفيلا، فتح جميع الأدراج بحثًا عن أي شيء يصلح للدفاع عن حياته، لم يجد ما يصلح. لقد تم تأمين الفيلا حفاظًا على حياة فريدة ولا أحد سواها.

سمع صوت هدير محرك إحدى السيارات وأنوار كشافاتها تتلألأ من خلال زجاج باب الفيلا، أسرع خارجًا، ولأول مرة لاحظ أن باب الفيلا كان مفتوحًا. نزل من السيارة أربعة رجال، كان من بينهم السيد رمزي بملامحه الغليظة وعينيه المنتفختين، بينما حمل الثلاثة الآخرون البنادق الآلية استعدادًا لما هو متوقع.

- فيه ايه يا هاني؟ ايه اللي حصل؟

سؤال صعب للغاية! ماذا يقول لهم؟ بماذا يمكن أن يجيبهم؟ يحتاج إلى مزيد من الوقت والتفكير لتفصيل إجابة منطقية أو كذبة مقنعة، لكن في تلك الظروف لا مفر من الحقيقة، بالإضافة إلى أنه لا يعلم ما أخبرتهم به إيريني عبر الهاتف.

نظرًا لكل ما سبق، اتخذ قراره:

- فريدة حاولت تقتل حازم!

بسذاجة:

- ليه اتخانقوا؟

- مش عارف أشرح لحضرتك الموضوع إزاي! عمومًا المهم دلوقتي نلحق حازم.

- أنا اتصلت بأقرب مستشفى هنا، هي بعيدة شوية لكن مش

هايتأخروا بإذن الله.

التفت حوله ثم أدرك:

- طب هي فين إيريني؟

- ما تقلقش، أنا خليتها تقفل على نفسها الأوضة.

- وفريدة؟

- مش عارف، بس واضح إنها بره الفيلا، لأن الباب كان مفتوح.

أشار إلى أحدهم:

- أنت خليك واقف هنا.

ثم أشار إلى الباقين ليتبعوه، تحركوا في اتجاه الحديقة للبحث عنها بملامح متباينة ارتسمت على وجوههم، الحارسان حملا ملامح التوتر والاستعداد، بينما نضحت ملامح الرعب على وجه هاني، في حين استحوذ القلق على سمات رمزي واصف، وإن حاول إخفائها. الحقيقة لم يحدث ذلك منذ مكالمة استغاثة ابنته فقط، بل قبل ذلك بقليل على وجه الدقة.

***

عندما عاد رمزي واصف من مراسم الإكليل وقد اعتلت وجهه ابتسامة رضا وسعادة، ما أن أغلق باب غرفته بالفيلا حتى أسرعت زوجته تساعده في خلع بدلته السوداء التي اشتراها خصيصًا لتلك المناسبة، ثم انحنت لتحرر قدميه من الحذاء في خضوع وحب، داعبت شاربه وهو يتثاءب، ارتدى منامته ثم اتجه إلى فراشه محدثًا

زوجته التي انشغلت في طي ملابسه ووضعها في دولاب ملابس ضخم.

- حلو اليوم كان يا أم إيريني.

توقفت ثم التفتت إليه وقد ارتسمت ابتسامة حانية على وجهها، جعلته يسألها في دهشة:

- مالك؟

- من زمان أوي ما قولتليش يا أم إيريني!

أطرق رأسه في صمت محرج لا يليق بهيبته، ثم قال:

- خلاص بقى، ما فيش حاجة بتفضل على حالها، في الأول وفي الآخر هي بنتنا، لحمنا ودمنا، وأنا خلاص.. أيام العمر معدودة، والزعل مش هايفيد ولا هايرجع اللي راح، وما دام هي مبسوطة مع جوزها هعوز إيه تاني؟

ثم أردف غاضبًا وهو يستلقي على الفراش مستعيدًا هيبته:

- طب والمسيح الحي انتي ولية نكد، كان لازمتها إيه السيرة دي دلوقتي؟

ابتسمت وهي تقترب منه لتدثره بالغطاء وتربت على كتفه:

- طب والعدرا إنت ما في أحن منك، ربنا يديك طولة العمر وتفرح بولادها... يا أبو إيريني.

أرخى جفنيه ليتأهب للنوم لولا أن ارتفع صوت الهاتف الأرضي المزعج:

- وده مين اللي هايتصل دلوقتي!

نهض وأمسك بالسماعة ليجيب غاضبًا:

- ألو.

- أيوة يا رمزي.

- مين؟

- أنا الأنبا ميخائيل.

تبدد غضبه وهو يعتدل في جلسته ويرسم صليبًا على جبهته:

- كيفك يا أبونا؟ أؤمرني.

- كنت عايز أتحدث معاك شوية، الوقت يسمح؟

- ولو ما يسمحش يا أبونا، أؤمرني.

سكت هنيهة قبل أن يجيب:

- ضيوفك اللي كانوا في الكنيسة النهاردة دول مين؟

- ده صاحب جوز إيريني وخطيبته؟ خير؟

- لا أبدًا، بس يعني انت تعرفهم كويس؟

- صدقني لأ، أول مرة أشوفهم لما جم مع إيريني وجوزها من يومين، بس خير، عملوا حاجة غلط؟

- لأ، بس عايزك تحرص منهم، ومن البنت بالذات.

- ليه يا أبونا مالها؟

- مالهاش ولا حاجة بس حزَن وخلاص.

أومأ برأسه موافقًا باندهاش:

- ماشي يا أبونا، حاضر.

ثم وضع السماعة في شرود، واستغرق في تفكير عميق:

- أحرص منها!

***

- أيوة لازم تحرص منها.

قالها هاني موجهًا كلامه إلى أحد الرجال وهم يتقدمون بين الأشجار في الحديقة الواسعة بحثًا عن فريدة، استقبل الرجل كلامه بسخرية محاولًا وأد خوفه:

- يعني واحدة بنت ممكن تعمل إيه؟

- هي من ناحية تعمل فهي...

- هشششششش.

لفظها رمزي مقاطعًا حديثهما وقد تصلب كتمثال شمع، وحذا حذوه الباقون وهم يرهفون السمع لتبين سبب تلك الـ(هششش) وصوت الرياح يمزق الأعصاب، تسلل إلى مسامعهم همس غناء أحدهم، التفت الجميع حيث أشار رمزي ليتبينوا بالكاد شبح فتاة ترتدي جلبابًا أبيض تقبع بين شجرتين، اقتربوا في حذر منها ليجدوا أنها تجلس القرفصاء وهي تنظر لهم في تحد واضح وقد انفرجت

ابتسامتها في سخرية لاذعة، ظلت تردد أغنية بكلمات أجنبية لا يعلمها أحد سوى هاني الذي تصلب مكانه وترك الباقون ليتقدموا أكثر، شرعت بنبش الأرض بأظفارها دون أن تتوقف عن الغناء لحظة لتصدر صوت خربشات مخيف.

يقتربون أكثر..

تصلب أظفارها في الأرض أكثر.

يقتربون أكثر..

يقطر الدم من أظفارها.

يقتربون أكثر..

تقفز لتغرز أظفارها الدامية في رقبة أقرب الرجال إليها ليتخلى عن بندقيته محاولًا نزع أظفارها من لحمه، وقف رمزي وهاني يشاهدان ما يحدث وقد احتبست الحروف والأنفاس في حلوقهما، في حين تخشب الرجل الثاني في حيرة من أمره.

ثوانٍ حتى اتخذ قراره، فأمسك ببندقيته ورفعها ثم.. هوى على رأسها لتسقط فاقدة الوعي.

***

في إحدى الغرف المغلقة، يقف الأب ميخائيل بزيه الأسود، يمسك بقطعة صوفية تشبه ربطة العنق مزخرفة بصلبان مذهبة، يقبلها ثم يرتديها، يرسم الصليب على صدره ثم يشعل الشموع البيضاء وهو يتمتم ببعض الكلمات همسًا، يخرج قنينة ماء مقدس من جيبه،

ثم يثبت في وقفته عدة ثوانٍ وهو ينظر للفتاة الجالسة على أحد المقاعد الخشبية، تلتف حول رأسها ضمادة بيضاء وقد برزت بعض قطرات الدماء من مسامها، تنظر لأعلى دون اكتراث، تحاول تحريك يدها فتكتشف أنها قد قيدت من أطرافها الأربعة بالمقعد الخشبي، ترخي عينيها شيئًا فشيئًا حتى يلتقيان بعينيه، يقترب منها ببطء وهو يردد بعض الصلوات: (باسم يسوع المسيح، السلام عليكِ يا مريم، مباركة أنت من بين النساء ومباركة ثمرة بطنك).

يرسم صليبًا ثم يضع إبهام يمناه في قارورة زيت موضوعة على منضدة في منتصف الغرفة ويقترب من فريدة ليلمس جبهتها وينفخ مرددًا: (لتبتعد عنها كل روح شرير نجس مخفي قاطن في قلبها).

ترتعش وتبدأ قطرات العرق في الانزلاق إلى عينيها: (احفظها ولا تترك للعدو مجالًا للنصر).

تتوتر قسماتها وتتشنج عضلاتها وهي تحاول تحريك أطرافها بأنين خافت: (احمها وصنها في جسدها وروحها).

تخدش بأظفارها مسندي الكرسي الخشبي: (أتوسل باسمك المقدس وأطلب...).

تقاطعه وهي تنظر إليه مبتسمة:

- ابعد عني، أنا مسلمة.

يقطع صلاته مجيبًا بتحدٍّ:

- وأنا ياما عالجت مسلمين.

يمسك بالصليب ليقربه من وجهها فتصرخ:

- بقولك ابعد عني.

نطقتها بصوتين مختلفين، مما أثار قلقه فابتعد قليلًا ثم...

***

لم يكن أمام الأب ميخائيل طريقة أخرى للتعامل معها، تفسيره الأوحد لما حدث في الكنيسة والعنف تجاه خطيبها أنها وبلا أدنى شك ممسوسة، هكذا تعلم في الكنيسة، وفي هذا تخصصه.

شيطان تلبسها ليقلب حياتها رأسًا على عقب، وفى الحقيقة لم يخطئ ظنه تمامًا، لذا نراه يقف أمامها في حيرة من أمره، عاقدًا كفيه مستغرقًا في تفكير عميق، لم يحدث ما اعتاد أن يراه يحدث من قبل، لم تتقيأ سائلًا كريه الرائحة كما حدث مع معظم الحالات السابقة، كذلك لم ينطق شيطانها مقدمًا نفسه ومعترفًا ببغيته كما اعتاد أن يسمع مع الحالات التي عالجها من قبل.

اخترق عقله وإيمانه بعض الشكوك:

ربما تكون سليمة روحيًا،

ربما تكون مصابة بحالة نفسية ما،

ربما، ربما، لكن المؤكد بالنسبة له أنها مصدر خطر وقلق للجميع...

لذلك يترك صليبه وقنينة الماء المقدس، ويقبض على مزلاج باب الغرفة ليزيحه جانبًا ثم يلقى نظرة أخيرة عليها ويغادر الغرفة ويصفق الباب خلفه، ثم يعلو صوت خشخشة المفاتيح وهو يوصده،

يقف لبرهة عاقدًا حاجبيه، يسحب نفسًا عميقًا، ثم يمشي في تؤدة ليقطع الرواق الطويل ويدلف إحدى الغرف، غرفة تحولت لمستشفى ميداني، يستلقي حازم فاقد الوعي على أحد الأسرة بعد أن قام أحد رجال الإسعاف بتضميد جرح رأسه، وربطها بضمادة بيضاء كبيرة تكاد تخفي حاجبيه، بينما تم تعليق محلول بأحد أعمدة السرير يغذي وريده المتهالك، بينما يجلس هاني وإيريني في ثبات متوتر وعيون قلقة، انتهى المسعف من عمله ليلتفت إلى السيد رمزي الواقف في ثبات وقد خلى وجهه من التعبيرات.

- محتاجين نعمل محضر...

قاطعه:

- مفيش داعي للمحاضر، الراجل وقع وهو نازل السلم ودماغه اتخبطت في الترابزين.

- بس الخبطة واضح إنـ...

قاطعه بحدة تلك المرة:

- يا بني.. بقولك اتخبط في الترابزين، وكلها ساعة ولا اتنين ويفوق ويبقى زي الفل، لو حابب ما تمشوش غير بعد ما تطمنوا عليه ممكن....

- لأ يا فندم مفيش داعي، بس يا ريت لو حصلت أي تطورات في حالته تكلمنا فورًا.

- حاضر.

انصرف وتبعه رمزي بعينيه حتى اصطدما بعيني الأب ميخائيل الرابض على باب الغرفة، تبادلا نظرات ذات مغزى، ليلتفت ميخائيل مغادرًا الغرفة ثم تبعه رمزي، وفي الخارج:

- ايه يا أبونا! طمني.

- مش هعرف أطمنك، لإن أنا نفسي مش متطمن.

- البنت أخبارها ايه؟

- في الأوضة، المهم دلوقتي، إيريني تبات في حضنك الليلة، والصبح رباح.

قالها وهم بالانصراف، لولا أن استوقفه قائلًا:

- طب والبنت؟

- أنا ربطتلها رأسها وجرحها مش كبير زي التاني، ممكن الرجالة يدخلوا يفكوا رجليها وإيديها، بس يقفلوا عليها الأوضة وواحد منهم يبات جنب الباب.

- هي ملبوسة يا أبونا صح؟

نظر في عينيه طويلًا بحثًا عن إجابة ثم:

- مش عارف.. بس دي حالة جديدة أول مرة أقابلها، أول ما يفوق الراجل ده والأمور تستقر يكون هو وخطيبته راكبين القطر لمصر.. المسيح يرعاك.

قالها وانصرف مغادرًا ليترك رمزي واقفًا وحيدًا يتمتم:

- رجعالي يا بنتي بعد السنين دي ومعاكي الهم ده كله؟

***

مرحلة جديدة، استعد للقادم أسوأ...

***

اليوم الثاني عشر

قطعت سيارة فان سوداء المسافة بين مدخل القرية وفيلا رمزي على مهل، تجنبًا لإثارة عاصفة من الرمال والأتربة، حتى توقفت أمام مدخل الفيلا لينزل سائقها، ويتمطى متثائبًا وهو يبدو عليه الإرهاق جراء رحلة سفر شاقة، ثم يفتح الباب الأيسر لينزل منه الدكتور سليمان في هدوء كعادته، ممسكًا بحقيبة سامسونايت سوداء.

نجح هاني بصعوبة وبمساعدة زوجته في إقناع السيد رمزي بالسماح لحضور الدكتور سليمان لعلاج فريدة في الفيلا، وها هو ذا يقف سليمان ينظر طويلًا لمدخل الفيلا، حيث جلس أمام بابها رجلان يحمل كل منهما بندقية آلية وشارب كثيف، يقترب من أحدهما:

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام، اتفضل يا دكتور، هاني باشا بانتظار حضرتك جوه.

قالها وأشار تجاه الباب، ليتحرك سليمان مخاطبًا مساعده دون أن يلتفت إليه:

- تعالى يا حسن.

وما أن دلف إلى داخل الفيلا حتى استقبله هاني بملامح متوترة، قرأها سليمان سريعًا، ليستشف أن الأمور ليست على ما يرام:

- أهلًا وسهلًا يا دكتور، حمد لله على السلامة.

- الله يسلمك، إيه الأخبار؟

لاحظ انشغال نظر هاني بمساعده، ليقدمه قائلًا:

- ده حسن، المساعد بتاعي.

- أهلًا وسهلًا، اتفضلوا.

***

تناولا الغداء بينما هاني يخبرهم بآخر التطورات التي حدثت منذ قدومهم إلى الفيلا، لم يغفل بالطبع، كما أوصاه حازم، عدم ذكر قيام فريدة بقتل أمها، وأنها في الوقت الحالي في عداد المطلوبين للعدالة، فيما عدا ذلك حكى له ما حدث بينها وبين حازم، وسليمان يتابع في اهتمام شديد:

- وهو عامل إيه دلوقتي؟

- كويس، بس لسه ما فاقش.

- وهي؟!

بدا التردد على وجه هاني وهو يجيبه:

- حبسناها في أوضتها وفضينا الفيلا تمامًا، محدش قاعد معاهم

غيري.

زم شفتيه تأثرًا، ثم التفت إلى مساعده قائلًا:

- لما تخلص، خرج الأجهزة من العربية واستعد، واضح إن مفيش وقت للراحة.

ثم أمسك بيد هاني وهو يحمل حقيبته:

- تعالى طلعني لحازم.

تحركا معًا ليصعدا الدرج، وما إن دخلا غرفة حازم حتى اقترب منه سليمان متحسسًا وريده، ثم بنبرة رضا:

- نبضه منتظم، وأنا هديله حقنة تنشيط هتساعده.

تلفت حوله قبل أن يتساءل:

- فريدة فين؟

***

- في المنيا يا باشا، المتهمة اللي بندور عليها في المنيا.

قالها النقيب صفوت وهو يقتحم مكتب المقدم طارق، والعرق يبلل جبهته وقميصه، لينتفض الأخير واقفًا بعينين استلب الأرق بياضهما، وقد عقد حاجبيه في تركيز:

- وانتوا عرفتوا ازاي مكانها؟

انتشى فخرًا وهو يجيب:

- عملت تحرياتي عن كل معارف حازم، خطيبها وقرايبه، لحد ما

عرفت علاقته القوية بزميله هاني اللي ساعده في تهريب المتهمة، واللي صادف بردو إنهم مقدمين على إجازة سوا، وبشوية تقصي وبمساعدة تحريات الاتصالات، رصدنا مكالمة من تليفون إيريني، مرات المدعو هاني ده، المكالمة مصدرها قرية قريبة من المنيا وجاي علشان...

قاطعه صارخًا:

- ومستني إيه! اتفضل خد قوة وروح هاتهملي.

توارى فخره هربًا وارتجفت أوصاله، وهو يعقب:

- ما أنا سعادتك كنت جاي عشان...

- اتفضل يا حضرة الظابط، نفذ التعليمات.

أدى التحية بيد مرتعشة:

- تمام يا فندم.

ثم ينصرف ليترك طارق محلقًا في سماء شروده، ينظر لساعة الحائط وهي تشير إلى...

***

السابعة مساءً

في حجرة فريدة التي تم إخلاؤها من كل شيء عدا سريرها المقيد به من أطرافها الأربعة، يقف سليمان ومساعده الذي بدا عليه الذهول:

- إيه ده يا دكتور!

- هششششش.

- حاضر.

بدا على وجهها تعبير لم يرقه كثيرًا، تعبير لأول مرة يراه على فريدة، أكّد أن شكوكه ومخاوفه قد تحققت، وأن روح بيل تمكنت من غرس نفسها تمامًا في هذا الجسد.

أحضر المساعد طاولة خشبية ومقعدين، وثبت كاميرا أمام سرير فريدة، ثم أوصل عدة أسلاك بشاشة موضوعة على الطاولة وبجانبها لوحة كهربائية تحوي عدة أزرار ملونة، مؤشرات ظلت تتحرك صعودًا وهبوطًا في توتر، وخرج من تلك اللوحة أسلاك رفيعة تم توصيلها برأس وذراع فريدة. طلب منه سليمان فك وثاقها، فعل بتحفز وهو ينقل بصره بين فريدة وسليمان، ما إن انتهى حتى ابتعد مسرعًا ليجلس على مقعده أمام الشاشة ويطبق سماعة الأذن على رأسه.

***

يغرز المحقن

ينساب السائل الأزرق

ينتزع المحقن

يضع الضمادة

يضغط عدة أزرار

ثم:

- مرحبًا مرة أخرى.

قالتها وشبح ابتسامة يعلو وجهها:

- مرحبًا بيل، كيف حالك؟

- أشعر أني في أفضل حال، بل أنا بالتأكيد في أفضل حال.

مغمضة العينين أجابته، ولكنه يكاد يقسم أنّها تحدق إلى عينيه بتحدٍّ من خلف أجفانها، ليسألها مباشرة:

- إلى متى بيل؟

- إلى متى ماذا أيها المعالج؟

- إلى متى ستظلين داخلها؟

- وكيف أتركها؟ وهل تترك الروح مخلصها؟

- وما ذنبها؟

- قلت لك من قبل، إنه فقط حظها العاثر.

- إذًا!

- أخبر حبيبها أنها تحبه، قاومتني كثيرًا وأنا أحاول قتله.

- وما الفائدة من قتله، بيل؟!

- الامتلاك مشروط بالخلاص ممن تحب.

- لن أدعك تقتليه، بيل.

بتحدٍّ:

- سأقتله، وأقتلك، كما قتلت أمها.

نظر إلى مساعده في دهشة، ثم غادر الحجرة بعصبية، والمساعد يصيح فزعًا:

- أنت سايبني ورايح فين يا دكتور!

هبط الدرج مسرعًا ليجد هاني جالسًا في منتصف الردهة مسندًا رأسه بكفيه، في حين صاح به:

- هي فريدة قتلت أمها؟

لم يعدل من جلسته، أجابه دون أن يرفع رأسه بيأس:

- آه، واتحجزت في المستشفى فترة، وهربناها علشان نجيبها هنا.

- انتوا إزاي تعملوا كده؟ إزاي تورطتني في حاجة زي كده؟

صائحًا قالها في غضب، ليجيبه صوت لا يمت إلى هاني بصلة:

- كنا مضطرين يا دكتور.

***

كان حسن جالسًا ينقل بصره بين الشاشة واللوحة الكهربائية، مؤشراتها تعلو وتهبط في هياج شديد، ثم استقرت فجأة وتوقف الأزيز، قطب حاجبيه في دهشة، وفزع وهو يؤرجح عينيه بين الفراش الخالي والباب المغلق ثم الغرفة الخاوية.

وفجأة.. يدقق النظر لوهلة قبل أن يدرك الحقيقة المفزعة، يلمح

بطرف عينيه انعكاسًا لعينين تراقبانه في الشاشة، يستدير ليراها تقف فوق رأسه بعينين ممسوحتين، خاليتين من السواد، وفمها اتسع بابتسامة تليق بقاتلة عاتية، قاتلة تدعى: بيــل... بيــل جانيس.

***

التفتا لمصدر الصوت ليجدا حازمًا يحاول النزول مستندًا بيده اليمنى على سور الدرج، ممسكًا بالأخرى رأسه المُضمّدة، عاقدًا حاجبيه في ألم. هرع إليه هاني ليمسك بيده، بينما لم يفق سليمان من ذهوله بعد.

- مضطرين لإيه؟ دي واحدة محكوم عليها بالإعدام.. هيفرق معاكم تموت سليمة ولا عندها برد؟

- يؤسفني يا دكتور أقولك...

أومأ برأسه ثم استطرد:

- إحنا بقينا في مركب واحدة.

أجابه صارخًا:

- من ساعة ما جالي الظابط ده العيادة وأنا مش مطمّن، عمومًا إنتوا أحرار، لكن أنا همشي من هنا فورًا.

حازم بعصبية:

- تمشي تروح فين؟ بعد كل اللي دفعناه؟

- كل اللي دفعته هيتردلك، لكن أنا مش هقعد دقيقة واحدة في

المكان ده.

قالها وهرول صاعدًا درجات السلم، ليمسكه حازم متوسلًا:

- أرجوك يا دكتور، ما تسيبناش.

انتزع ذراعه صائحًا:

- إوعى من وشي.

تشبث به حازم مرة أخرى بغضب:

- ما هو أنا مش هسيبك تمشي إلا لما...

اشتبك الاثنان في شجارٍ عنيف، تمزقت على إثره الياقات، ولكمه سليمان في وجهه لينزف أنفه دمًا، وكاد أن يبادله اللكمة لولا أن انتزعتهم صرخة هلعٍ صادرة من غرفة فريدة، صرخة لا تخصّها، ليهرعوا راكضين. وما إن فتحوا الغرفة حتى وجدوا حسن، المساعد، وقد اخترقت رأسه الشاشة الفضية، وانسالت الدماء من وجهه ورقبته...

انتفض سليمان فزعًا من المنظر الذي أمامه، ثم هرع مغادرًا الفيلا وهو يُخرج هاتفه الجوال ويطلب الشرطة، بينما ظل حازم وهاني متصلبين كالأصنام.

مشهد الضحية وقد انغرست رأسه داخل الشاشة، والزجاج المكسور قد اندس في أوردة رقبته، وشرارات كهربائية تنطلق من الجهاز، ورائحة الشواء، كان أكبر من قدرة أحدٍ على التحمّل.

كان حازم أول من هدم أصنام الصمت، أمسك بكتف هاني وظل

يهزّه بقوة دون استجابة، وكأنه فارق الحياة، حتى صرخ في أذنه:

- هااااني!

التفت إليه وكأنه انتزع من حالة شرودٍ فُصامي، وبعينين جاحظتين وفمٍ مفتوح سال منه اللعاب بلا إرادة، أخرج سكينًا حادًّا من بين ملابسه، ليسأله حازم:

- فين فريدة؟ فين فريدة؟

هز رأسه نفيًا وكأنه متهم بخطفها، مجيبًا بحشرجة:

- معرفش، معرفش.

التفت حازم حوله وأدرك لأول مرة غياب الدكتور سليمان، ليغادر الحجرة راكضًا حتى وصل إلى بوابة الفيلا وقد خلت من الحارسين. ظل يتلفت حوله، فارِجًا ذراعيه في دهشة وتساؤل، لا يعلم ماذا يفعل. ألم رأسه وأنين جرحه الغائر لم يمنعاه من الركض؛ اخترق الحديقة بين الأشجار بحثًا عنها، لكنه لم يجدها.

شق الصمت صوتُ سارينة سيارة، ليتوقف ويستدير عائدًا بسرعةٍ مقطوع الأنفاس، حتى وصل إلى سيارة الفان السوداء. وجد سليمان جالسًا أمام المقود، وقد تحجّرت عيناه في فزع. وقف في توترٍ حذر، وجاهد صدره في استنشاق أكبر قدر من الهواء، وزادت دقات قلبه حتى كادت تعلو على صوت السارينة ذاتها. مد يده وأمسك بمقبض باب السيارة، حاول فتحه، فانفتح الباب قافزًا منه جسد سليمان ليسقط أرضًا، وقد انفجر الدم الأسود من رقبته، وظهرت دائرة مستديرة من الجلد وقد انفصلت عن رقبته تمامًا إثر عضةٍ من

أحدهم...

ثم لقي حتفه.

أمسك حازم برأسه ثم جثا على ركبتيه، وظل يضرب الأرض بقبضتيه في غل وغضبٍ شديدين وهو يبكي كالطفل، ثم تسمّر جسده وتجمدت الدموع في حدقتيه وهو يرفع رأسه نحو الفيلا وقد تذكّر أمرًا هامًّا...

نهض يركض مسرعًا وهو يصرخ:

- هااااااااااني!

نظرًا لبعد المسافة عن فيلا السيد رمزي، لم يشعر أحد بتلك الكارثة. وما إن خطت قدماه داخل الفيلا حتى أغلق الباب خلفه، وجر أحد مقاعد الاستقبال الضخمة ودسّه خلف الباب حتى لا يتكرر الخطأ مرة أخرى. ثم أمسك بشمعدانٍ نحاسي كان موضوعًا على أحد الرفوف المعلّقة في توترٍ وحذر. ازدرّد لعابه وقد تبللت ضمادته بعرقٍ غزير، وتكوّرت قبضته العارية استعدادًا لأي انقضاضٍ مباغت. وبعينين شاخصتين صعد الدرج في حذرٍ وتوتر؛ صراخ الصمت يُلهِب الأعصاب، يكاد يسمع صوت مفاصل قدمه وهي تتحرك صعودًا، وعاصفة ثلجية أصابت جسده رغم العرق المتصبب. انتهى من درجات السلم كمن يخطو على الصراط، وصل إلى حجرتها واسترق السمع، فتناهى إلى أذنه صوت غناء.

أطل برأسه من فرج الباب الموارب ليجد فريدة جالسة وهي تغني ترتيلة الموت، ممسكة بغطاء الوسادة تُخفي بداخله شيئًا، وقد برز

سائل أحمر من مسامه. ترفعه إلى أعلى وتهزّه كبندول الساعة وهو يقطر دمًا، تنظر إلى أعلى وتبدأ عيناها في الدوران عدة مرات قبل أن تسكن تمامًا، ثم توجّه بصرها بحركة بطيئة نحو حازم المتصلب رعبًا.

- هي مغرمة بك، لقد أوصتني بك قبل رحيلها، لكن لا تفزع، سأقتلك دون ألم.

ثم نظرت إلى ما في يدها قائلة:

- ادنُ مني... فقط لا تخف... ادنُ مني... لدي مفاجأة سارة لك... لقد أحضرت ماما العشاء...

والتمعت عيناها واصطكت أسنانها تلذذًا وهي تردف:

- وطازجًا أيضًا.

أطلقت ضحكة صارخة وهي تقذفه بالغطاء القماشي، ليتدحرج ويستقر تحت قدميه. انحنى حازم في حذرٍ دون أن تفارق عيناه عينيها، ومد يدًا مرتعشة ليكشف الغطاء عن...

رأس هاني.

أخرجت سكينًا كان بحوزة صاحب الرأس منذ دقائق وقد تلطخ بدماءٍ خاثرة، لتبدأ في لعقه دون أن ترفع عينيها عنه. تقيأ وهو يبكي حتى استطاع الصراخ:

- ليه؟! ليه؟!

وفجأة حرّرت السكين من يدها ليسقط، ثم نظرت إليه وقد تبدلت

نظراتها الشيطانية بنظرة خوفٍ وتوتر، لتفلت منها بعض الكلمات:

- حازم... المتحف.... ودّيني هنـــ...

ثم سقطت فاقدة الوعي.

***

قالوا الفراق غدًا لا شك قلتُ لهم

بل موتُ نفسي من قبل الفراق غدًا

المتنبي

***

اليوم الثالث عشر

الساعة السادسة صباحًا - متحف جاير آندرسون

تقترب سيارة فان سوداء بهدوء، وتقف في مواجهة مدخل المتحف، ينزل حازم محاولًا إخفاء ملامح التوتر عن وجهه وهو يقترب من الحارس المكلّف بحراسة المتحف.

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام يا بيه، أؤمر.

- كنا عايزين ندخل المتحف نتفرج عليه وناخد لنا كام صورة كده.

يضحك بسخرية:

- تاخدوا صورة دلوقتي؟!.. عيب يا بيه، إنت فاكرني إيه؟! أنا

جاهل صحيح، بس راجل أوي.. سلامة راسك.

- يا عم ما تفهمنيش غلط، بقولك دي أختي.

قالها وأخرج ورقة بمائتي جنيه ليضعها في يده ويُحكِم قبضته عليها.

يضحك متلعثمًا بإحراج:

- أنا تحت أمرك يا سعادة الباشا، بس المتحف هيفتح كمان ساعتين، هو إنتوا الاتنين رابطين راسكم كده ليه؟

ضيّق حازم ما بين حاجبيه في دهشة واستنكار مفتعلين:

- يا راجل؟! أنا كنت فاكر بيفتح بدري.

- لا والله يا باشا.. كمان ساعتين.. ما قلتليش، راسكم رابطينها كده ليه؟

أخرج حازم ورقة نقدية أخرى من جيبه، طواها، ثم دسّها في الجيب العلوي لقميص الحارس.

- إحنا مش هناخد أكتر من ساعة، هنتفرج عليه في السريع، وناخد لنا كام صورة قبل زحمة الناس، علشان الصور دي تخص مشروع تخرج أختي اللي هناك دي، آخر سنة آثار بقى، ادعيلها ربنا يوفقها.

تهللت أسارير الرجل على استحياء -من أثر الورقة النقدية بالطبع، وليس ما قاله:

- يا باشا ربنا يوفقها ويعلي مراتبها كمان وكمان، أنا تحت أمرك وأمر الست هانم، بس...

- مفيش "بس" يا عم الحاج، بقولك مش هناخد أكتر من ساعة.

- سايق عليك النبي يا باشا، الموظفين هاييجوا كمان ساعتين بالظبط، ممكن أتجازى فيها دي.

- ما تقلقش.

قالها واستدار عائدًا إلى فريدة دون أن يعطي الرجل فرصة للتفكير أو الاعتراض، ومن حسن حظه أن ذلك المتحف قد أُهمل منذ زمن، ولا تقع عليه حراسة مشددة كباقي المتاحف الأثرية الأخرى.

- يلا يا حبيبتي، تعالي ندخل.

قالها ثم سحب يدها اليمنى ليضعها أسفل إبطه، ويعبرا البوابة العتيقة معًا، فانصاعت له باستسلام تحت تأثير المحاقن المهدِّئة التي كانت بحوزة الدكتور سليمان، والتي حقنها حازم بها حتى يتسنى له إحضارها دون مقاومة، خاصةً وأنه وضعها في الكابينة الخلفية من السيارة، وقطع بها كل تلك المسافة، ولحظِّه الحسن لم توقفه لجنة من لجان الطريق.

في تلك الأثناء شعرت فريدة بروحها وقد قُبِضَت، وهي تخطو بتردد ورعب حتى وصلا إلى البئر الذي أُحيط بفواصل تطوِّقه من جميع الجهات، يبدو أنها قد وُضِعت بعد الحادثة لتجنب تكرارها مرة أخرى، أخرج حازم الخاتم من جيبه ليلبسها في إصبع يدها الأكبر، ثم يُثني يدها لتقبض عليه بأصابعها.

ارتعشت فريدة، ثم بدأت في النشيج رويدًا رويدًا، رقت جفونها في تتابع ملحوظ وهي تبتلع ريقها، وقد ازدادت قبضة يدها انكماشًا

وهي تُغطي به فمها، ثم بدأت تتأوه بأنينٍ خافت، وصوت اصطكاك أسنانها يُصِم الآذان، وقد برزت عظام فكها.

ثم...

***

يقطع الحارس المسافة بين بوابة المتحف والباب الداخلي جيئةً وذهابًا، وقد اغتصبه القلق، وهو يدخن لفافة التبغ بغلٍّ، يلعن لسانه مئة مرة على عدم رفض طلب ذلك الشاب والفتاة ذات النظرات الغريبة، ماذا لو حضر مدير المتحف باكرًا؟

ماذا لو عرف أنه سمح لغرباء بدخول المتحف في غير المواعيد الرسمية؟

مؤكد سيبطش به، بل سيعفيه من وظيفته.

بعد تفكير عميق، أخرج الورقتين النقديتين من جيبه واتخذ قراره، بمجرد خروج هذا الرجل سيلقيهما في وجهه ويطردهما شر طردة.

كيف يجرؤ على إهانته بتلك الطريقة؟

- أيوه، هطردهم، هو بس يطلعلي وأنا أطلع...

تصدر صرخة قاسية تنتزعه من غِلّه وانتقامه، فتسقط لفافته المشتعلة وكذلك الورقتان النقديتان، ويركض في خوف:

- يا ساتر استر يا رب، يا ساتر استر يا رب.

يصل إلى مصدر الصرخة التي لم تتكرر، ليجد حازم يقف فوق البئر في رعب وهو ينظر إلى أسفل.

- فريدة، فريداااااه!

- إيه اللي حصل يا باشا؟

- معرفش، كنا واقفين بنتفرج على البير، وفجأة لقيتها نطت، عدت الحاجز ورمت نفسها جوه.

- الله يخرب بيتك يا باشا.. يا سنة سوخة يا ولاد، يا سنة سوخة يا ولاد!

ظل يرددها وهو يضرب بيده فوق رأسه.

- إنت هتفضل تولول كده؟! اجري اتصل بالمطافي ولا الإسعاف.

ركض إلى غرفته ليمسك بالهاتف، ويضغط عدة أزرار منتظرًا الرد، وهو يضرب فخذه بيده عدة مرات.

- ألوو، الحقني يا سعادة الباشا، مصيبة وحلت فوق دماغنا!

***

- الحمد لله، احمد ربنا إن كان في شبكة مركبة، ده إحنا لسه مركبينها قريب بسبب حادثة حصلت واتشال فيها المدير السابق، وما كانش ينفع نقفل البير، فركبناها من جوه علشان لو حد وقع ما يحصلوش حاجة.

قالها مدير إدارة المتحف وهو يحادث حازم، الذي ظل يستمع في ذهول، قبل أن يستطرد في غضب:

- بس أنا مضطر يا أستاذ حازم إني أبلغ الشرطة، لأنكم خالفتم

القانون وعرّضتم حياتكم للخطر، وده شيء مستحيل أتغاضى عنه.

- يا فندم أنا باعتذر عن اللي حصل، بس مشروعها الدراسي كان صعب، والمتحف كان عنصر مهم جدًا بالنسبة لها، أرجو من حضرتك إنك تتفهم موقفنا، وإن بلاغ زي ده كفيل إنه يضيع مستقبلها، ده غير إن تدخل الشرطة هيعرّض المسؤولين عن المتحف للمساءلة القانونية، وأعتقد إن دي حاجة لا يمكن حضرتك توافق عليها.

أصاب كلامه الرجل في مقتل، فكر الرجل، وللأسف هو على حق تمامًا، فتدخل الشرطة بأسئلتهم واتهاماتهم كفيل بالإطاحة به من منصبه، فآثر الظهور بمظهر الأب الخائف على مستقبل أبنائه.

- ماشي يا حازم، أنا هعديها علشان خاطر مستقبلها بس.. لكن مش خوف من المسؤولية ولا حاجة.

ثم أردف بحدة:

- بس الحارس ده أنا هــ...

- الحارس ده مالوش علاقة باللي حصل خالص، إحنا استغلينا دخوله الحمام، ودخلنا المتحف من غير ما يشوفنا، فما فيش داعي إن حضرتك تأذيه.

تصافحا، ثم انصرف حازم ليطمئن على فريدة، جاب أرجاء المتحف كلها... فلم يجدها.

***

وتعالَى على حِجري.. يا زمّان

ظلت تردد تلك الأغنية وهي تُعِد الغداء لزوجها، مع حرصها الدائم على هز خصرِها كل مرة مع ذكر كلمة "يا زمّان"، تمسك حلّة المحشي فتُقَرِّبها من أنفها، ثم تُغمِضُ عينيها وتسحب نفسًا قويًا.

- تِسلم إيديا.

أمسكت بالهاتف لتتصل بأمها، لولا أن سمعت صوت الباب وهو يُغلَق، فوضعت الهاتف جانبًا وخرجت إلى الصالة.

- إنت جيت يا حبيبي؟

- آه.

- اتأخرت ليه يا بابا النهارده؟

- مفيش... كان عندي مصيبة.

قالها وهو يجلس على الأريكة ويلقي بجانبه قرصًا مدمجًا، فلطمت صدرها بشهقة.

- مصيبة! مصيبة إيه؟ كفى الله الشر!

- ما تتخضيش، هي اتحلّت خلاص، بس كنت هاروح في داهية.

- احكيلي إيه اللي حصل؟

- واحد وأخته يا سِتّي دخلوا المتحف قبل معاد الفتح، والبنت نطّت في البير اللي موجود جوّه.

- يا نهار اسود! وماتت؟

- لأ الحمد لله، الشبكة الجديدة اللي ركبناها جوّه البير دي طلعت فكرة عبقرية، وأنا اللي ما كنتش موافق عليها... تخيلي!

- طب دخلوا إزاي؟

- هو حارس واحد، وتقريبًا الواد ظبّطه بفلوس علشان يسيبهم يدخلوا.

- أما راجل غبي فعلًا... إزاي كان فاكر إن الموضوع هيعدي بالسهولة دي؟ هو مش عارف إن فيه كاميرات مُركّبة؟

- غبي ابن كلب.

- يلا الحمد لله إنها جت على قد كده... وإيه ده؟

قالتها وهي تشير إلى القرص المدمج المُلقى بجانبه على الأريكة.

- ده يا سِتّي اللي متسجّل عليه اللي حصل... كان لازم أجيبه قبل ما يقع في إيد حد وأروح في داهية.

- يعني مفيش شهود؟

- مفيش حد غير الحارس، الحمد لله إنه أول ما اتصل اتصل بيا وما بلّغش لا المطافي ولا الإسعاف، كان زماني بايت في القسم.

- طيب يا حبيبي، قوم غيّر وخُد دش على ما أخلّص الأكل.

قالتها وذهبت إلى المطبخ لاستكمال إعداد الطعام، بينما نظر الزوج إلى القرص المدمج وهو يتمتم:

- الحمد لله... الحمد لله.

نهض متجهًا إلى غرفته، ثم توقف فجأة ليستدير ويلقي نظرةً أخرى إلى القرص المدمج، قبل أن يعود ويلتقطه ويدخله في جهاز الكمبيوتر ويضغط زر التشغيل. في البداية استغرق عدة ثوانٍ قبل أن تظهر صورة واضحة للبهو الذي يضم البئر، ضغط على زر تسريع العرض حتى ظهرت صورة لشاب وفتاة يقفان أمامه...

***

أنا أحبك يا سيفًا أسالَ دمي

يا قصةً لستُ أدري ما أُسمِّيها

أنا أحبك، حاول أن تُساعِدني

فإن مَن بدأ المأساةَ يُنهيها

نزار قباني

***

لم يتبق شيئًا ليخسره حازم بعد الأحداث الدموية الأخيرة؛ فقد صديق حياته، وأدرك أن أسفه وحزنه سنوات عمره المتبقية لن يُعيداه، ويبدو أيضًا أنه لا يوجد ما يُقدّمه لإيريني وابنها المستقبلي ليشفع له قتل زوجها، وتيقّن أنه قد فقد مستقبله أيضًا. بالتأكيد يعبث رجال الشرطة الآن بين أرجاء العزبة، وعلى رأسهم المقدم طارق، بحثًا عن فريدة، فريدة التي أرسلت لحازم رسالة إنقاذ أخيرة: "غُذ إلى حيث بدأت المشكلة".

لمَ لا؟ لعل ذلك هو الحل الوحيد لمأساة حياتهما؛ فإمّا أن تعود

لطبيعتها مرة أخرى وتعيش ما تبقّى لها من العمر سجينةً معافاة، وإما أن تَلقى حتفها وينتهي كل شيء، ويكون بذلك قد أنهى سلسلة القتل التي لم يكن يعلم مداها سوى الله.

***

وكذلك يظهر في شاشة العرض حازم وهو يُخرِج مِحقنًا آخر ويغرزه في ذراعها، وينتظر قليلًا حتى تهدأ حركاتها، ثم يُخرِج خاتمًا يُسكنه إصبعها، لتبدأ الفتاة في الارتجاف قليلًا، ثم تسقط فاقدة الوعي. ينحني ويحملها ويدنو بها من فوهة البئر، ويلقي بها داخله.

آخر صورة التُقِطت لبيل جانيس وأبنائها: فيليب، ولوسي، وميرتل.

شخصية (بيل جانيس) شخصية حقيقية، وأغلب ما ذُكِر عنها بتقرير (جاكوب) حقيقي، وفي عام 2007 قام فريق بحث أمريكي من جامعة إنديانا بوليس بفتح قبر السيدة مقطوعة الرأس التي وُجِدت في البيت المحترق، لعمل تحليل DNA للوقوف على حقيقة كونها بيل جانيس من عدمه، لكن لم يُعلَن هذا الفريق عن نتيجة بحثه حتى لحظة كتابة تلك السطور، حيث أُدرِج هذا البحث تحت بند: (سري للغاية).

إلى الأحمد خالد الذكر

إليك وحدك

إليك أيها الغريب

يا مَن زيارتك كانت رقصةً من رقصات الظل

قطرةً من قطرات الندى

يا أجمل لحنٍ سمعناه ولم نتوهّمه يومًا

إليك يا مَن بكلماتك أُسعد وقلبي لها يطرب

إليك وحدك

فأنا عنك دومًا - والحق يُقال - راضٍ

إليك يا مُلهِمي الأبدي...

حتى تحترق النجوم...

وحتى...

Notes

[←1]

(CBT) اختصار لـ(Cognitive Behavioural Therapy)، وهو العلاج المعرفي السلوكي.

[←2]

(EMDR) اختصار لـ(Eye Movement Desensitization and Reprocessing)، وهو العلاج بحركة العين لتخفيف شدّة الحساسية وإعادة المعالجة.